مُحَمَّدٌ

فى حياته الخاصة

بقلم

الدكتور نظمى لوقا

مكتبة غريب

محمد
فى حياته الخاصـــة

محمد

في حياته الخاصة

بقلم

الدكتور نظمي لوقا

الناشر

مكتبة غريب

٣٠١ شارع كامل صدقي (الفجالة)

تليفون ٩٠٢١٠٧

تنبيـــــه

مؤلف هذا الكتاب مسيحى المولد والمعتقد .

وما كنت بحاجة إلى هذا التنبيه ـ الذى يغنى عنه اسمى ـ لولا أن نفـرًا من النـاس ذهب ظنهم إلى أن إنصاف عقيدة من العقائد لا يمكن أن يصـدر إلا عن شخص يدين بالعقيدة التى يدفع عنها الافتراء . وبالتالى لا يدافع بالضرورة عن الإسلام أو ينصفه إلا مسلم .

وهو ظن باطل !

فليست كتبى هذه كتبـا دينية فى جوهـرهـا ومنهجهـا وغـايتهـا الأصيلة ، وإن عالجت أموراً متصلة بالدين . فالغـرض الأول منها الحث على نزاهة العقل والضمير بصفة عامة ، والنظر فى سائر الأمور نظراً موضـوعياً مبرءاً عن التحيز والتحـامل . بحيث يكون التفكير الإنسانى أشبه بما يدور فى معمل التحليل الكيماوى : لا تتأثر نتيجة

تحليل الدم إلا بالعناصر التى يتكون منها هذا الدم فعلا . ولا دخل فى هذه النتيجة لأن تكون قطرات الدم لذى قربى أو لأبعد الغرباء .

هذه النزاهة الموضوعية أسمى منهج عقلى متاح للبشر . وهى أشق ما يكون حين يتصل الموضوع بالعواطف الشخصية ، ولاسيما المعتقدات . لأن التجرد من هذه المؤثرات الذاتية جد عسير . .

لهذا السبب تعمدت البحث فى الإسلام . جاعلا من هذا الموضوع نمطا للمنهج العام الذى أدعو إليه . وليكون حجة ومثلا على الموضوعية المترفعة عن التحيز .

وإذا كان المنهج الموضوعى يسمح للدارس بغير اعتراض أن يكتب عن الكواكب البعيدة من غير أن يكون من سكانها ، وعن المعادن من غير أن يكون ضربا من الحديد أو النحاس ، وعن السيارات من غير أن يكون سيارة . فأى عجب أن يكتب بهذا المنهج الموضوعى عن الإسلام من ليس فى عداد المسلمين ؟

ألا إن الإنصاف النزيه أثمن فضائل الإنسان . وهو أجدر أن تتصف به نظرتنا إلى الأمور كافة ، بما فى ذلك الأديان التى ندين بها أو يدين بها سوانا . .

وفى مرجوّى أن يقرأ القارىء صفحاتى بمثل الروح التى كتبت بها . .

وسلام على الصادقين . .

دكتور نظمى لوقا
من رفيق الأرض
المتمردين على الأغلال

إهــــــداء

إلى السائرين فى الظلمة . .

وإلى من يلوح لهم - من أنفسهم - فجر جديد

وأيضاً إلــى . .

صوفى عبد الله . .

وصلتنى وقـد قطعنى النـاس . وواستنى وشدَّت من عزمى - وكانت سكنا لنفسى وملاذا . قالت لى : « لا تَهِنْ يا رجل ! » حين أقبلت المحن كأنها قطع الليل . .

خير زوجة هى . . وخير صديق . . وخير أم .

خير شريكة هى : فى أمانة الفكر . وأمانة القلم . وأمانة الحياة . .

كلمة فى معنى الشرف والشرفاء

« لم آت لأدعو خطاة إلى
التوبة بل الأبرار »

هنريك أبسن

« عرض أى إنسان شريف ينبغى أن يكون عرض جميع الشرفاء فى رحاب الكون أجمع ، على اختلاف مذاهبهم فى الرأى ، ومعسكراتهم فى الاعتقاد » .

قاعدة لابد من تقريرها وتثبيتها فى الأذهان والوجدان ، لأن الأحداث تتكشف فى كل يوم ، بل وفى كل ساعة ، عن شديد حاجة الناس إلى توضيح معنى الشرف ، أو العرض العقلى والروحى وإلى توكيده بلا انقطاع .

إن كل فرية ظالمة يرمى بها إنسان فاضل ينبغى ألا يتأذى منها ذلك الفاضل المظلوم وأنصاره وأولياؤه دون سواهم ، ثم يقف من عداه وعداهم من الفضلاء الشرفاء موقف غير المكترث الذى لا يعنيه من الأمر شىء ، ما دامت أشخاصهم المحدودة لم يمسسها أذى . .

معاذ المروءة !

إن كان هذا الموقف هو الذى يرتضيه لنفسه الأنانى ، ومن مصلحته الخاصة مدار حياته الوحيد كأنه الحيوان الأعجم ، فكيف

يمكن أن يرتضيه لنفسه من مدار حياته قيم أخلاقية ومبادىء تسمو فوق اعتبارات المصلحة الفردية والحزبية والطائفية ، لأنها لباب الإنسانية الباقى وجوهرها الكلى الشامل ؟ . .

إن الذى لا يعنيه إلا ما يصيب ذاته خائن وضيع فى مقياس الأسرة ، والذى لا يعنيه إلا ما يصيب أسرته خائن وضيع فى مقياس الحى أو العشيرة . والذى لا يعنيه إلا ما يصيب العشيرة أو المدينة خائن وضيع فى مقياس الوطن . والذى لا يعنيه إلا ما يصيب الوطن خائن وضيع فى مقياس الإنسانية الشامل .

وبتلك المقاييس يفدى الشريف ذو المروءة والفضل أسرته بنفسه ، ويقدم العشيرة كلها على أسرته ، ويقدم وطنه على عشيرته وهلم جرا . . حتى لتقاس المروءة والشرف والفضل بعظم المعنى الذى يراه المرء حرمة مقدسة يبذل فى سبيل صيانتها ما دونها من النفس والنفيس . . فالذى يقدس الوطن أفضل وأشرف ممن يقدس المدينة أو الإقليم ، والذى يقدس المدينة أفضل وأشرف ممن تقديسه لا يتجاوز الأسرة ، ومن يقدس الأسرة أشرف وأفضل ممن لا يقدس إلا نفسه والعياذ بالله من البلاء .

وننتقل إلى محيط الفكر فنجد الناس طوائف فى الرأى والعقيدة ولكن شرف كل صاحب رأى وفضل كل معتقد إنما هو فى نقاء إخلاصه للرأى أو العقيدة ، إخلاصا منزها عن المصلحة الذاتية ، أو المصلحة الطائفية . فكلاهما مطية الهوى والتعصب المغرض سواء فى ذلك التعصب للنفس أو للحزب أو للمذهب ، فهو يعوق المرء عن

تبين محجة الصواب إذا عرضت عليه ، كمن على عينيه غشاوة أو عصبة تحجب عنه المرئيات . وتلك هى الخيانة لأمانة الحقيقة ، خيانة تقابل موقف من يقدم مصلحة العشيرة مثلا على مصلحة الوطن العليا . . لأن الحقيقة هى الوطن الأعظم لكل صاحب عقل وضمير ، فالذى يهدر نزاهته تعصبا منه لرأى معين يخصه وحده أو يخص جماعة معينة من الناس هو منهم ، خائن خيانة لا تقل عن خيانة الوطن بحال من الأحوال . .

وننتقل إلى محيط الأخلاق . . فنجد وطنا أكبر لجميع البشر ، هو وطن الصدق والعدل . . فما الأخلاق بغير صدق لا يداور ولا يداجى وبغير إنصاف لا يجور ولا يحابى ؟

والصدق والعدل هنا وطن مشاع لجميع الناس . الخصم منهم والصديق . كما أن الوطن يضم شتى العشائر والأحزاب ؛ وذوى القرابة ومن بيننا وبينهم ترة أو خصومة .

فإن جاز أن نضحى بالوطن فى سبيل خصومة أو محاباة ، جاز كذلك أن نضحى بمبدأ الصدق والإنصاف فى سبيل خصومة أو محاباة !

ولئن قيل فى الوطن المعمور أن من قتل نفسا واحدة فكأنما قتل الناس جميعاً . . وليس للوطنى الحق أن يتستر على القتل ، ولو كان القاتل أخاه وكان المقتول عدوه المبين . كذلك فى الوطن الروحى أو الأخلاقى من افترى على نفس واحدة كذبا فكأنما افتأت على شرف الناس جميعهم وعرضهم وسمعتهم . . وليس للشريف ذى المروءة

حقاً أن يتستر على ذلك الافتراء الوضيع ، ولو كان المفترى عليه خصيمه فى الرأى أو مخالفاً له فى العقيدة .

أجل ، ينبغى أن يكون للفضل عرض عام وشرف مشترك مشاع بين الفضلاء والشرفاء على تباينهم فى الرأى والعقيدة . ومن لم يشعر بالتأذى والغضب لفرية تصيب خصيمه أو المخالف له ، فماذا يبقى له من معنى الشرف والمروءة ؟

« وإذا أحببتم من يحبونكم فقط فأى فضل لكم ؟ » . .

« وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فقط فأى فضل لكم ؟ » .

هكذا قال السيد المسيح ، فى رسالة المحبة العظمى . . ومن يسأل هذا السؤال الضخم ، حرى أن يسأل كذلك :

« إن غضبتم غضب الغيرة على شرف من يشار كونكم الرأى فقط فأى فضل أو مروءة أو شرف يبقى لكم ؟ . . » .

إن الحماسة للحق أينما كان ، ولمصلحة كائن من كان ، والغيرة عليه هى لباب الشرف القديم . فما الشرف إن لم يكن تجاوز أشخاصنا المحدودة إلى قيم عامة لا يعنينا أن تكون مغانمها لنا أو لسوانا ، ويعنينا الدفاع عنها حين تهدد ، سواء كان الدفاع عنها دفاعا عنا أو عن سوانا . . لأن الحق هو الذى يبتغى وجهه ، والإنصاف هو الذى نبقى عليه . . ولا بقاء لنا إذا تداعى الصدق والعدل ، وضاعا بين الناس ، فى غمار المهاترات والسخائم .

ومتى تكون الغيرة فى موضعها الصحيح ، إن لم تكن على سمعة هاد من هداة البشرية طالما نال منه المفتاتون بلا تورع ولا حياء ؟ . .

ومتى لا تستغرب الغيرة إذا كانت تستغرب فى مثل هذا المقام ؟ . .

فأى النـاس أولى بنفى الكيد عن سيرته من « أبى القاسم » الـذى حول المـلايين من عبـادة الأصنـام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين ، ومن الضياع والانحلال إلى السمو والإيمان ، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئاً مما يقبل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام ؟

حفاظا على معنى الشرف وصيانة لحق المروءة أوجبت على نفسى ذلك الإنصاف لشخص أبى القاسم .

أوجبت ذلـك على نفسى منـذ عرفت قدره وأدركت خطره ، والواجب فرع ـ عند ذوى الأمانة ـ عن الإدراك . . فشهادة الحق من أوجب الأمانات ، والساكت عن الحق شيطان . . فمن يجهل الحق لا لوم عليه . . والملام كل الملام على من يدرك الحق كرائعة النهار ثم يتخاذل عن إعلائه ، ويترك رايته تنتكس بين السفلة والطغام ، وتوطأ بأقدام الجهلة والظلمة واللئام . . وساء ذلك صنعاً : إنه كان إثما ووبيلا . .

الأمية والجهل

﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيهِمْ آيَـاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُم الكِتَابَ والْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

« سورة الجمعة »

هذه الآية يستفاد منها على الأرجح أن المقصود بالأميين أهل الأمم من غير بنى إسرائيل الذين كانوا يسمون أنفسهم الشعب المختار ، الذى اختص بالهداية والنبوة . وأن غيرهم من أبناء سائر الأمم « أمميون » أو « أميون » . لا نبوة فيهم ولا هداية لهم . فجاءت هذه الآية لتقرر ما شمل الله به « الأميين » من الرحمة إذ أرسل فيهم رسولا منهم .

﴿ يَتْلُو عَلَيهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . .

على أن المستشرقين وسائر المغرضين آثروا الأمية بمعنى عدم القراءة والكتابة وهى صفة غير منكورة للرسول العربى الأمى . . وقد آثرنا أن نسايرهم تعقبا لحجتهم وتوسلا إلى إفحامهم .

ليس كل أمى جاهلا

وليس كل جاهل أميا . .

الأمى من لا يقرأ ولا يكتب . والجاهل من لا يعلم ما ينبغى أن يعلم .

وليس العلم كله منوطا بقراءة وكتابة . وليس كل ما هو مكتوب مقروء علما يكون الجهل به وصمة تنتقص من قدر من لا يقرأ ولا يكتب .

والفيصل فى هذا الشأن أن تعرف بالضبط ماذا تساوى القراءة والكتابة . .

ما من شك فى أن البشرية اخترعت القراءة والكتابة فى وقت متأخر نسبيا من تاريخها المعروف ، بعد أن قطعت فى مدارج الحضارة والتعلم والخبرة أشواطاً عسيرة شاقة . ولا يقلل من خطر هذه الخطوات الأولى أنها تبدو لنا ضئيلة القدر حين ننظر إليها من فوق ذروة التقدم التى ارتقينا إليها فى عصرنا الحاضر ، فأشق وأضنى جهود الطفل حين يتعلم لأول مرة كيف يمشى . فإنه قبل ذلك يتعلم الحبو ، ويتعلم الوقوف ، ويمضى مجازفا مروعا ينقل قدمه وكأنه يحمل وقر جبل ، فيتعثر ، ويقع ، ويبكى ، ويدمى ، وينهض ، ويستنفر

شجاعته لمواجهة الخطر مرة أخرى ، ثم يستجمع همته ويخطو خطوة أخرى ، وهكذا إلى أن يستقيم له المشى وينقاد لإرادته فى ألفة تجعل منه طبعا ثانيا يأتيه بلا تفكير ولا جهد . .

كذلك خطوات البشرية الأولى فى مدارج الحضارة : كانت هى الأساس الأول لكل حضارتنا الماثلة ، وكانت الجهود فيها شاقة طويلة قليلة المحصول إلا أنها عظيمة القيمة .

أليس أساس البيت لا يظهر منه على وجه الأرض شىء ، ويبذل فيه من الجهد والنفقة أكثر مما يبذل فى الشاهق من طبقات البناء ، لأن عليه المعول فيما يقوم فوقه من الصرح ؟

ولم تكن البشرية ، وهى تقعِّد القواعد من بناء حضارتنا وتوطد لها الأساس ، قد عرفت القراءة والكتابة . . فكان البشر كلهم أميين فهل كانوا لهذا السبب جهالا كلهم بغير استثناء ؟

محال عقلا أن يكونوا كلهم جهالا ! بل كانت لهم معرفة ، وكان ثمة تفاوت بين آحادهم وعشائرهم فيما تيسر لهم من الخبرات والمعارف . كان بعضهم أعلم من بعض ، لأن بعضهم أذكى من بعض ، ولأن وطاب بعضهم أحفل بزاد التجربة والدراية والفطنة من بعض . . فمنهم العالم والجاهل ، ومنهم الحكيم والأحمق ، وكلهم مع ذلك سواسية حتما فى صفة الأمية ، بسبب مادى لا حيلة فيه هو أن القراءة والكتابة لم تكن قد اخترعت بعد . .

فليس هناك إذن أدنى ارتباط بين جهل وأمية ، أو بين علم وقراءة وكتابة . .

فما القيمة الدقيقة إذن للقراءة والكتابة ؟ . .

هى قيمة الرمز . .

ونزيدها تقريباً إلى الأذهان ، فنجسمها ونضرب لها مثلا أوراق النقود ، أو النقود عامة ، فى زماننا الحاضر . .

هذه النقود يتوهم الأغبياء ـ وما أكثرهم ! ـ أن لها قيمة حقيقية فى حد ذاتها ، والواقع أن النقود لا قيمة لها فى حد ذاتها ، وكل قيمتها فى أنها تمثل ثروة ، أى مادة لها عند الناس قيمة ، لأن لهم إلى تلك المادة حاجة .

فالنقود ـ على عكس الوهم الشائع ـ لا تحدد قيمة الأشياء إلا فى الظاهر فقط . أما فى واقع الأمر ، فالأشياء هى التى تحدد القيمة الحقيقية للنقود ! . .

ولماذا نذهب بعيداً ؟ . .

ألسنا كلنا نعرف قصة ذلك الأعرابى الذى ضل الطريق فى الصحراء ، ولم يجد ما يقتات به ، حتى إذا أشفى على الهلاك ، جوعا وعطشا ، عثر المسكين بكيس من الجلد ، فتحه بيد مرتجفة من الوهن ، فوجد فيه ذهبا وهاجا ، وهو الذى لم يقع فى يده طول عمره دينار ذهبى واحد ! . . ونظر الأعرابى إلى الذهب فى غيظ ، ثم ألقاه من يده فى سخط وأسى ، وهو يقول :

ـ وما قيمة هذه الدنانير عندى الآن ؟ ما انتفاعى بها ؟ ألا ليت لى بكل دينار منها تمرة ! أو ليت لى بها كلها جرعة ماء بارد . . !

وما من نظرية فى قيمة النقود أدق من عبارة هذا المسكين الذى ظل لفاقته مغترا بقيمة النقود طول حياته إلى أن تعلم حقيقة قيمتها بثمن غال من أنفاسه . .

فالنقود رمز أو وسيلة وليست غاية فى ذاتها ، فهى بغير قيمة على الإطلاق ما لم تمثل « أشياء » عينية حاضرة مما يحتاج إليه الناس فى معاشهم أو معنوياتهم . .

ولذا طالما رأينا قيمة النقود الرسمية تتبخر تحت أعيننا فى زحمة المجتمع لا فى قفر الصحراء . فحين يصاب المجتمع بانكماش فى الإنتاج ، أو ضمور فى السلع عامة ، يعز القوت فيرتفع ثمن الرغيف حتى يبلغ رقما خياليا من النقود ، أو يعز الملبوس فيرتفع ثمن الثوب حتى يبلغ رقما خياليا من النقود .

وهذه بعينها هى القيمة الحقيقية للقراءة والكتابة فى زماننا ـ وفى كل زمان ـ ولم يكن لها فى أى حقبة من الوجود البشرى قيمة تجاوز هذه القيمة الاسمية بحال من الأحوال . .

رمز لا قيمة له فى ذاته ، وكل قيمته فيما يعبر عنه أو يرمز إليه .

ولا غرم فى الحقيقة على من غاب من بين يديه الرمز ، ما دامت يداه مملوءتين بالنفائس الماثلة بذاتها : إذ لا حاجة مع حضور أعيانها إلى رمز ينوب عنها أو يشير إليها . .

ولكن الكثيرين من الناس يجهلون ذلك الفرق بين الأمية والجهل ، فيترددون فى ذلك الخلط بلا تبصر ، لأنهم تعودوا أن يجدوا

القراءة والكتابة باب التعلم المطروق منذ النشأة ، وغاب عنهم « أن العلم ما علمت ، لا ما تعلمت . . ! »

إن القراءة لا تعدو أن تكون بابا للتلقين عند أكثر الناس ، ومثلها كمثل فتحة الفم ، يدخل منها الطعام . ولكن هضم الطعام وتمثله حتى يصير دما وحرارة سارية فى العروق والخلايا أمور تتوقف على المعدة والأمعاء والكبد والبنكرياس وما إلى ذلك من الجوارح فى جسم الحيوان والإنسان . فدخول الطعام فى الفم شىء ، وهضمه شىء آخر ، وحصول الفائدة أو الأذى منه شىء ثالث . .

كذلك القراءة : يتلقن منها الناس أموراً تدخل عن طريق العين ولكن هضم هذه الأمور يتم عن طريق العقل ، فهو الذى يحلل المعلومات كما تحلل المعدة الغذاء كى يحتفظ بالنافع منها وينبذ ما يتأذى منه أو ما لا يتفق مع طبيعته .

وعملية نبذ الضار أو غير الموافق للبدن عملية جوهرية بالنسبة للكائن الحى ، وهذا ما تقوم عليه أهمية وجود مصرف مقابل المدخل ، فكانت فتحة الشرج مقابل فتحة الفم . .

وكذلك جهاز العقل ، لا يستقيم أمره إلا إذا كان قادراً على النفى ، والنبذ ، والاستبعاد لما لا يلائمه من المعلومات التى تصل إليه من مداخل شتى ، من بينها العين القارئة أو الأذن السامعة فهاتان الحاستان أهم موارد التلقين عند الإنسان .

فالقـراءة إذن شىء ، والفهم أو التمييز شىء آخر ، وحصول الفائدة أو الأذى من المقروء شىء ثالث . .

وما بالنا نذهب بعيداً ؟ . .

إن ذلك الخلط الأبله بين معرفة القراءة والكتابة (وهو ما يسمى فك الخط) وبين العلم قد بدأت تظهر لنا سخافته ظهوراً فاضحاً فى السنوات الأخيرة ، عندما حصل لدينا تضخم فى الأجازات العلمية يقابله ضمور فى العلم ؛ فصار صاحب الأجازة الجامعية فى كثير من الأحيان « أجهـل » من الحـاصـل على الشهـادة الابتدائية قبل ربع قرن . وتبـين لكـل ذى عقـل عدم وجود ارتباط حتمى بين المعلوم أو المفهوم والمقروء . .

إن التفـاوت فى الافـادة من القـراءة كبير جداً بين القارئين فى الموضوع الواحد ، بل فى الصحيفة الواحدة . .

هذا التفاوت الضخم شبيه بحقل واحد مزروع بالبرسيم مثلا ، أتاه فأكل منه حمار وأتته فأكلت منه نحلة !

طعامهما واحد بالضرورة ولكن شتان ما يخرج من جوف الحمار بعد هذا الطعام ، وما يخرج من جوف النحلة !

شتان شتان ! ومن لم يصدق بذلك الفرق فالغرم عليه وحده وعلى من أحب أن يشركه فى مشارب الطعام ، أو ما هو شبيه بها من مشارب الأفهام ! . .

والناس يصح عندهم أن يقال طبيب جاهل وطبيب عالم . ومدرس جاهل ومدرس عالم . وقانونى جاهل وقانونى عالم . ومهندس جاهل ومهندس عالم . ففى كل صناعة من يفقه ومن لا يفقه . وفى كل فن من يحسن ومن يسىء . والعالم والجاهل فى كل صناعة يأخذان من منهل واحد ، وقد يحضران على أستاذ واحد . ولكن وراء عينى أحدهما عقلا صنو جوف النحلة . ووراء عينى الآخر عقلا صنو جوف الحمار !

فالمعول إذن على العقل الذى يهضم المعلومات ـ أيا كان مصدرها من قراءة أو سماع ـ ويرتبها ويقيس عليها ويستولد منها . فذلك العقل مختلف جداً عن عقل تصل إليه المعلومات فلا يمحصها ولا يهضمها ، ولا يرتبها ولا يقيس عليها ولا يستولد منها . تدخل إليه المعلومات لتظل جامدة على حالها ، تحفظ منها ذاكرته ما تحفظ وتنسى ما تنسى . فهى أشتات جزئية مثل حب فى غرارة .

العقل الأول ناشط نابه . كالأرض الجيدة تتلقف البذرة فتتعهدها حتى تكون شجرة مباركة تؤتى ثمرها أكلا طيباً . والعقل الآخر بليد كليل كغرارة تأسن فيها الحبة وتتعفن ، مصيرها إلى فساد ونقصان لا إلى زيادة ونماء . .

وقد يكون العقل النابه لأمىٍّ دون قارىء ، وقد يكون لأمىٍّ دون أمىٍّ آخرَ ، وقد يكون لقارىء دون قارىء آخر . .

ولكن أكثر الناس لا يفطنون إلى ذلك الفارقَ ولا يفقهونه على وضوحه كالشمس رأد الضحى . .

قلت ذات مرة لصاحب لى معدود بين المتعلمين أصف سيدة التقيت بها فى داره فى اليوم السابق :

ـ ما أجهلها ! إنها لا تعرف شيئاً ولا تفقه شيئاً ، ومن العسير أن تجعل فكرها ينشط فى أمر غير مطروق . .

فظهرت الدهشة على وجهه وقال :

ـ أجاهلة هى ؟ كيف تقول هذا عنها ؟ ألست قد سمعتها تتحدث معك بالإنجليزية والفرنسية كبنات لندن وباريس ؟

فقلت له :

ـ على رِسْلِك ! هاتان لغتان تحسن صاحبتك الكلام بهما حقاً !

ـ إذن ؟

فركبنى شيطانى وقلت له متهكماً به :

ـ إذن هناك يا صاحبى فرق ضخم فى نظرك بين حمار ـ أستغفر الله ! ـ بل بين أتَانٍ تنهق بالعربية وحدها وأتان تخالف فى نهيقها بين ثلاث لغات أو أربع أو مائة أو ألف ؟ ليس المهم يا صاحبى أى لغة تستخدمها فى القول ، بل المهم كله ماذا لديكَ لتقوله بهذه اللغة أو تلك . .

فقال صاحبى :

ـ ألم تكن تقول شيئاً إذن فى حديثها هذا الطويل ؟

ـ لم تقل حرفا واحداً ليس من طراز الصيغ (الكليشيهات) المحفوظة ، كأن تحت لسانها مجموعة من أقراص (أسطوانات) الحاكى ، تردد كلاماً معاداً ، وأفكاراً شائعة ، كالبضاعة المستوردة ، لا تدل على حذق أو جدارة ولا فضل لمن يستخدمها ، والفضل كله لمن ابتدعها وصنعها أول مرة . . وهذه يا صاحبى امرأة كالدمية ، ليس لها تفكير خاص ، ولا ذوق خاص ، ولا رأى خاص ، فماذا لها من خصائص العلم والفهم ؟ أجل هى جاهلة مزخرفة بطلاء من نفاية العلم ! ولكن العلم يا صاحبى شجرة حية ، متى قطعتها عن أصلها لم تكن إلا حطباً كل ما يصلح له أن يكون وقوداً للنار . . ومثل هذه الجاهلة المتشدقة المتحذلقة خدع يبتلى بهم وبهن البشر . .

وحملق صاحبى برهة فى وجهى ثم قال :

ـ الحق معك . .

ولعله قالها ليضع لثورتى حدا ، ولكنه على كل حال قالها بلهجة أحزنتنى : لهجة من فطن إلى شىء لأول مرة فوقع منه موقع العجب المحير للبه . وهذا دليل على أن التعلم ، أو فك الخط ، أو الحصول على الأجازات العلمية ، مصدر وهم ضخم عشش فى أذهان الناس . . بل إن هذا الوهم صار صنما عقلياً يعبده الكثيرون من الناس ، لأن هذا الصنم يمثل فى أخلادهم قيمة ملموسة بارزة ، ولا يفطنون ـ أولعلهم لا يأبهون ! ـ إلى أن هذه القيمة الصنمية قيمة مظهرية مزيفة .

ألم تكن الأصنام فى بداية أمرها رموزاً إلى قدرة الله وزلفى ، ثم استشرى خطرها فاستقلت عند الناس بقيمة قائمة برأسها ؟

وهـذا الصنم العقـلى ـ صنم القـراءة والكتابة ـ أبت مخترعات عصرنـا إلا أن تعبث به عبثـاً ظاهراً . . فنحن فى عصر تزاحم فيه الكلمة المسموعة (مسجلة ومذاعة) الكلمة المقروءة المنظورة . فأنت تقرأ اليوم بأذنيك مثلما تقرأ بعينيك ، ومن الناس فى أعماق الريف وبين طبقات الدهماء من لا يقرأون بأعينهم إطلاقا ، ويقضون ساعات كل يوم يقـرأون بآذانهم . ولن يطول بنـا انتـظار اليوم الذى تصبح فيه القراءة كلها ـ أو معظمها ـ بالأذن لا بالعين . وتصبح فيه الكتابة كلها أو معظمها بالفم لا باليد ، إذ يحل التسجيل الصوتى محل المطبعة .

ويومئذ لا يكون ثمة فرق بين أمى وغير أمى . . بل يكون الفرق كله بين قيمـــة علم أو فكـر حقيقية ، وبـين قيمـة جهـل أو غبـاء حقيقية . . وتنقشع غاشية هذا الخلط الشائن الذى أوغل الناس فى اللغط به ، حتى فتنهم عن طلب القيم الحقيقية ، فنرى الفرد منهم يطلب الانتظام فى مدرسة أو جامعة بذاتها لا حبا فى علم يحصله ، بل طلباً لأجازة يحملها . فإنه متى قعد فى قاعة الدرس كان همه أن يطلب من المعلومـات أيسرها . . أو يأكل العلم أكلًا لمًّا : يحفظ ما يلقى إليه دون فهم ، بل دون محاولة فهم فى أكثر الأحيان . . وإذا وجد الأستاذ الذى يأخذه بالجد فى الدرس ، ضاق به وتأفف ، ذلك أنه لا يريد علما وإنما يريد ترخيصاً بادعاء العلم ولا علم !

ولا يكتفى الواحد منهم بغش الناس فى قيمة علمه ، بل يعتنق أكذوبته ، ويقع فى أحبولته ، فيصدق أنه عالم بحق .. أليس يحمل أجازة رسمية ، شهادة بأنه درس وحصل وعلم ؟

ولهفى مرة على أمة توضع فيها « دمغة » الذهب على النحاس أو الرصاص ، لهفى عليها ألف مرة حين يؤمن ذلك النحاس أو الرصاص أنه ذهب ، فيناصى العالم الحق كل من هب ودب ..

وعلى أساس من هذا الخلط والادعاء تشدق ذوو المآرب الملتوية ، إما عن خبث وإما عن غباء ، بأن أبا القاسم كان جاهلا ، لأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب !

وقلما يجد الإنسان كلاماً أدل على الجهل بالموضوع من هذا الكلام ..

رجل جاهل ..

لماذا ؟ ..

لأنه أمى ..

وها نحن قد أسلفنا ذكر حمير تقرأ وتكتب وتنهق بلغات شتى ..

ومن حولنا ، أينما ولينا وجوهنا ، أشخاص لا « يفكون الخط » ، ولكنهم أهل معرفة وحنكة وحصافة فى التفكير ، تناقش الرجل منهم فإذا وزن مستقيم للأمور ، وتمييز دقيق بين المتشابهات ، ونظرة ثاقبة تنفذ إلى اللباب ولا تغتر بالقشور .

نرى نماذج من هؤلاء فى الريف ، وفى الحضر . ويعرف لهم نظراء لمعوا فى التاريخ الحديث . شادوا دولا ، وأسسوا أنظمة حكم ، وكانوا أصدق نظراً وأقدر على الحكم والسياسة والتخطيط والتنظيم من كل من هم تحت يدهم من المتعلمين الرسميين ، ومن معظم الذين يناظرونهم من ساسة الدول فى عصرهم ، وهم صفوة المثقفين المعرقين . .

وليقرأ من شاء صفحات التاريخ الحديث ولا سيما فى الشرق ، وليقف مليا عند رجال لا يمكن أن تنكر عبقريتهم وهم أميون . . دليل ملموس إذن ، وقد شاع التعليم شيوعاً كبيراً ، فما بالك بزمن عبر فى بادية قفر ، الأمية صبغة أهلها الغالبة ، والقراءة والكتابة صفة نادرة قلما تتوافر لإنسان منهم .

أحمق إذن ولا شك من يتوهم الجهل فى رجل دانت له الرجال ومنهم الأمى وغير الأمى : أقنعهم بدعوته ، وأفحمهم بحجته ، وتبعوه فازدادوا به إيماناً ، حتى لقد فدوه ودعوته بأرواحهم راضين .

كيف يصح فى عقل بشر أن هذا الرجل متصف بالجهل ، ولو من غير نظر فى كلامه المحفوظ وسيرته المأثورة !

مسكين من يطلق هذه التهمة استناداً إلى أمية أبى القاسم .

وليس المسكين هو المرمى بهذه التهمة الرعناء . .

ولكنها تهمة يصدق بها الجاهل المعتز بقيمة مزيفة تمكنه من « فك الخط » من غير أن تجعله يميز الخبيث من الطيب ، فهو يحمل ما قرأه

من غير أن يفيد منه علما ولا فهما ، مثله كمثل « الحمار يحمل أسفاراً . . » .

يؤمن الجاهل بهذه التهمة لأنها تدخل على نفسه العزاء بأنه خير من ذلك الأمى الناشىء فى بطن الصحراء . . ويفوت بصيرته العمياء أن ذلك الأمى ائتم به الملايين وهداهم وعلمهم وأنار بصائرهم . وما أغنى عنهم من كان فيهم قبله من كاتبين وقارئين .

ولكنه غرور الجهل . والجهل والغرور توأمان ، كلاهما يملى لتوأمه فى الشر ، فيزداد الجاهل بجهله غروراً ، ويزداد بغروره جهلا ، لأن آفة الجاهل أن يعجبه جهله فيكف عن التبصر والتعلم ، أليس يقرأ ويكتب ؟ أليس قرأ الصحيفة الصفراء . . ؟

وهذا هو بحذافيره شأن الجاهل المغرور من هؤلاء المصدقين بفرية الجهل تأسيساً على صفة الأمية .

وأوخم منه شأن الخبيث الذى يعرف ـ أو يجدر به أن يعرف ! ـ الفرق بين الأمية والجهل ، ولكنه يستغل غفلة أناس عن ذلك الفرق كى يلوك التهمة بلسانه الطويل ، فيلقفها اللاقفون بآذانهم الطويلة ، ثم يلغطون بها ويتناجون متشدقين . .

وماذا عساهم يفيدون من ذلك اللغط الغث ؟

جواب هذا السؤال لا يكون بالتنقيب عن تلك الفائدة بمنطق العقل النزيه المستقيم . بل بتقمص عقلية المفترين الملتوية وباستخدام منطقهم اللئيم . .

إن هدفهم الأول ليس الكسب الحقيقى أو الموضوعى ، بل مقصدهم الأول إرضاء باعث داخلى لديهم : إرضاء سخيمة تستقطب التهجم على سمعة إنسان شريف كريم لتنال من سمعته وتنتقص من حميد صفته . .

ولا يقعدهم عن ذلك القصد أن الإهانة لا تلحق الشريف الكريم فى نظر من لهم عقول تحسن وزن الأقدار .

وهل أقعد وبشا فى يوم من الأيام عن إخراج لسانه لرجل محترم أو قذفه بحجر علمه أن قدر ذلك المحترم لن يضار عند أحد من الناس بذلك العمل الوضيع ؟

كلا ! بل حسب الوبش أن يرضى حقده على تمتع ذلك المحترم بالتجلة والاحترام . .

إن أصحاب مثل هذه الفرية لا يطمعون أن تنطلى على لبيب . ولكن حسبهم أن تنطلى على الغافلين ، فيحول ذلك بينهم وبين سلامة التقدير للرجل المبغوض . .

ولا عليهم أن يضار بذلك الافتراء وتلك المغالطة فى واقع الأمر من يصدقونهم ويتابعونهم فى الضلال ، لأن من يغلق عينيه دون النور ، يضير عينيه ولا يضير النور ، ولأن النور منفعة للرائى لا للمصباح ، وللمهتدى به لا الهادى إليه . .

وقديما على أهلها جنت براقش . .

وما من زمان أراه يخلو من براقش . .

جموح الشهوة
وتعدد الزوجات

وبعد فرية الجهل التى تقوض القدرة العقلية ، اتجه المفترون إلى نقيصة أخرى تقوض المزية الخلقية ، وتطعن الرجل الشريف فى مروءته وصفته الإنسانية التى يعتز بها كل من ينأى بنفسه عن درك الحيوان البهيم .

ومنطقهم فى هذه كمنطقهم فى تلك ، مقدمة سليمة ومسلم بها ، يؤسسون عليها مقدمة أخرى مغلوطة ، لتلقح إحداهما الأخرى وتخرج من اجتماعهما أكذوبة شوهاء ، تلدها العقول المتهتكة وتشيعها الألسنة الآفكة ! . .

مقدمة سليمة : محمد تزوج عدداً من النساء . .

واقع مشهود به لا ينكره ولا يفكر فى إنكاره أحد . يتناولونه فى براءة مصطنعة وخبث مبيت ، ليقولوا بعدها :

« وليس زوج الواحدة سواء وزوج العدة من النساء . . زوج الواحدة ملجم الشهوة ، وزوج العدة من النساء جامح الشهوة مطلق العنان ، لا يطيق منع نفسه من طلب النساء ، أو هو لا يريد أن يمنع

نفسه من طلبهن ما دامت الفرصة متاحة لما يشتهيه من الإباحة . . » .

والنتيجة الطبيعية لهذا الكلام أن محمداً كان رجلا شهواناً ، لا صبر له عن النساء ، ولا كابح له عن الاستكثار منهن .

فحين نتعرض لهذه الفرية لا نتعرض لها من منظرها ، بل من أساسها الذى بنيت عليه . نتعرض للمقدمة المدسوسة التى خلطت بين الكم والكيف ، وبين التعدد وجموح الاشتهاء . وهو خلط قريب المدخل عند من لا يدققون الفهم ولا يفرقون بفطنة بين المظاهر المادية والبواعث النفسية التى هى أمور باطنة لا تأخذ العين العابرة ما لم تؤيدها بصيرة نافذة .

* * *

ونقرب المفارقة إلى الأذهان ، فننقلها من المضجع إلى المطبخ ومن الفراش إلى المائدة .

زيد رجل نهم شره . .

لمـــاذا ؟ . .

لأننا نرى على مائدته العديد المتنوع من الألوان والصحاف .

وعمرو رجل قنوع . .

لمـــاذا ؟ . .

لأنه لا يأكل إلا من طعام واحد ، صحفة واحدة تتكرر بعينها فى كل وجبة ، ولا يحاول لها تبديلا ، ولا يستزيد عليها .

وعصـام رجل زاهد . .

لمــــاذا ؟ . .

لأنه قلما يذوق الطعام وإذا تذوقه فهو من الخبز القفار لا يمس الإدام ولا يهم به .

ومـا رأى الـراءون من زيد وعمرو وعصام إلا ما على المائدة ، وما يدخلونه فى أفواههم . أما ما فى باطن كل واحد منهم من الشهوة للطعــام ، والـرغبـة فيه ، والإقبـال عليه ، والتعلق به ، فلم يره الراءون . بل تخيلوه تأسيساً على ظاهر المطعوم الذى يسترعى النظر ، ولا يحتاج إلا إلى عين ترى ويد تحصى . .

ولكن الطبع أمر موكول ببواطن الشعور والبواعث بصرف النظر عما يتفق أو لا يتفق ، ويتيسر أو لا يتيسر من الوسائل المادية المقابلة لتلك البواعث .

أجل . . قد يكون صاحب الصحاف المنوعة الكثيرة من الطعام غير بطين ولا شره ، نفسه غير متعلقة بأفانين المأكول ، ولا تشبث له بكثـرتهـا وتنوعها . . وإنما ذلك عليه هين يتيسر له فيصيب منه غير محتفل ولا مكترث ، أو لا يتيسر له فلا يهتم ولا يأسى .

هذا ، وقد يكون صاحب الطعام الواحد أو الصحفة الواحدة بطينـا شرهـا . تتعلق نفسه بالمأكل ، يكترث لما يصيبه منه فيسرف ويغتم إن غاب عنه ، فالشراهة فيه طبع ونحيزة لا يتعلقان بالمظهر

الخارجى . وإنما هى نوع من العلاقة بين الآكل والمأكول علاقة متينة الأسباب ، عميقة الجذور فى نفس المرء ذى البطنة .

بل أكثر من هذا ، قد يكون الممتنع عن الأكل بإدام ما عاش لا يأكل إلا الخبز القفار ولا يملأ منه جوفه إلا لماما . . قد يكون هذا المرء أكثر بطنة وشراهة فى واقع الطبع والنحيزة من صاحب المائدة المنوعة ، ومن صاحب الإدام الواحد . .

فالعبرة بالعلاقة بين الآكل والمأكول ، سواء حضر ذلك المأكول أو غاب ، وسواء أقبل عليه الآكل إقبالا فعليا أو أحجم عنه لسبب من الأسباب . .

ألا ترى إلى المريض يمنعه الطبيب المعالج من الطعام ؟ ولكن ذلك الامتناع لا ينهض آية على عفة أو انصراف نفس . بل الأمر على نقيض ذلك تماما فى معظم الأحيان ، إذ يقابل ذلك الامتناع شهوة قوية إلى كل مأكل ممنوع ، وقد تجمح فتنتهز خلسة من الرقباء لتأكل من الدسم ما تصل إليه . . !

وقريب من ذلك من يمنع نفسه عن الطعام من تلقاء ذاته . فليس هذا على الدوام آية على هوان أمر الطعام عليه ، بل قد يكون النقيض هو الصحيح فى هذا الموقف أيضاً . .

ليست العبرة بالامتناع ، إنما العبرة بتعلق النفس ومدى الاهتمام فى باطن الشعور . فرب ممتنع عن الطعام وهو يستهول أمر ما حرمه على نفسه . وكأنه بهذا دائن نزل عن شىء ضخم غاية الضخامة ،

يقتضى مقابله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ! . .

وليس هذا حال الزهد الحق . فالزهد الحق أن تخلع حب الدنيا ولذاتها من قلبك ، لا أن تمتنع عنها ببدنك وقلبك متعلق بها !

ليس الزهد الحق أن تمتنع عن الإدام وأطايب الطعام ، وأنت لها وامق وبها مستهام ! فإنك حينئذ تكون أنهم المنهومين . وإنما الزهد ألا تكترث نفسك للذات الطعام أصبت منها أم لم تصب . فهوان تلك اللذات عليك وهى حاضرة متاحة لك هو العفة بعينها ، واستهوال تلك اللذات وأنت ممتنع عنها هو الشراهة بعينها . .

هذا هو الفيصل العقلى بين النقائض فى باب المأكول ، وعلى شاكلته الفيصل العقلى الدقيق بين النقائض فى باب الفراش . .

صاحب الزوجات الكثيرات يجمع بينهن قد لا يكون شهوانا ، لأن المعول على ما يكون فى نفسه من نوع الصلة والارتباط بهن ، فإن كان ذلك الارتباط ارتباطا تعلق بلذة المضاجعة قبل كل شىء فالرجل شهوان بسبب تعلقه بتلك اللذة ، لا بسبب كثرة عدد من فى عصمته من النساء .

أما إن كان صاحب الزوجات الكثيرات مرتبطا بهن برباط لا يقوم على طلب اللذة قبل كل اعتبار ، بل يقوم ارتباطه بهن على الأواصر الإنسانية السامية من مودة ورحمة وبر ورعاية وحدب وتكريم للشخصية الآدمية فى المرأة ، فالرجل ليس بشهوان لعدم ابتناء صلته

بالمرأة على اللذة البهيمية ، بصرف النظر عن عدد من فى عصمته من النساء .

وبهذا المقياس عينه ننظر إلى صاحب الزوجة الواحدة فإن كانت صلتـه النفسية البـاطنة التى تربطه إليها صلة تراحم وإيثار وتكريم للشخصية الآدمية فى المـرأة ، فالـرجـل ليس شهـوانـاً بسبب نوع إحساسه وصلته الباطنة بالمرأة عموماً ، لا بسبب اقتصاره على امرأة واحدة .

أما إن كان صاحب الزوجة الواحدة يصدر فى ارتباطه وتعلقه بها عن عنف طلب اللذة لذات اللذة ، فالـرجـل شهوان بهيم بصرف النظر عن عدم تعدد من تنصرف إليهن وتنصب عليهن شهوته الجامحة من أفراد النساء . .

وبهـذا المقياس نزن سلوك من لا زوجة له . طائعاً أو مكرها ، فننظر إلى حال نزلاء السجون ، وليس لهم إلى امرأة من سبيل فهل ننسبهم إلى العفة وسكون الشهوة ؟

هذا غير معقول ! فما أشد جماح شهوة هؤلاء الفئة من الناس ، وكثيراً ما يدفعهم ذلك إلى الشذوذ . . فعدم اتصالهم بالنساء إطلاقا لا ينهض آية على عفتهم ، لأن الشهوة لديهم متقدة .

وكذلك من لا زوجة له ، ولا يقرب النساء بمانع من إرادته . قد يكون إحساسه بالمرأة مع ذلك إحساس المكترث المتعلق ، وتكون لذة المضجع عنده عظيمة المكانة فى نفسه ، فهو إذن شهوان بصرف النظر عن احتباس شهوانيته احتباسا ظاهريا أو عدم احتباسها .

بهذا التفريق الحاسم نعزل ما هو من عالم النفس ، أو عالم الباطن ، عما هو من عالم المادة أو عالم الظاهر . وندرك أنه رب ذى زوجات كثر لا مطعن على سمو نفسه ونزاهة مشاربه . ورب ذى زوجة واحدة لاحظ له من سمو النفس ونزاهة المشرب . ورب عديم الزوجة لا موضع فى قلبه إلا للذة البهيمية . يكبرها حتى تكون عنده معادلة لأعظم ما فى السماء والأرض من المناعم ، ولا يرتضى ثمنا لها أقل من جنات الفردوس !

لا ارتباط إذن بين المظهر والمخبر ، فقد يدل المظهر على الشىء ونقيضه . فلا يكفى التعدد إذن أساسا للقول بجموح الشهوة وسيطرتها على الرجل . بل ينبغى أن يلتمس المتلمسون لذلك الحكم أساسا آخر من شواهد حاله ، ومجموع سلوكه مع النساء ، كثر عددهن أو قل . . لأن المعول على نوع الصلة وبواعثها ، لا على كثرة العدد أو قلته أو انعدامه كما أسلفنا .

* * *

وليس طلب المرأة للرجل وطلب الرجل للمرأة رجسا من حيث هو ، بحيث تقاس قيمة الإنسان بتعطل وظيفته الجنسية .

كلا ! كل ما هو طبيعى فى وظائف الإنسان لا عيب فيه . ولكن العيب كله ألا يلتزم الإنسان فى وظائفه المستوى الإنسانى ، فينحط بها إلى درك الحيوان البهيم . .

الحيوان البهيم طالب شهوة عمياء . . كل ما يطلبه قضاء تلك الشهوة ، بأى وجه ، ومع أى أنثى . فهى صلة : الفعل الجنسى كل مدارها وغايتها . وتنقضى بانقضاء ذلك الفعل .

والرجل الشهوان هو الذى يكون ارتباطه بالمرأة وطلبه لها لأنها أنثى . . لأنها « أداة » غفل لقضاء تلك الرغبة الغريزية . وقيمتها عنده رهن بما تتيحه من درجات تلك اللذة .

أما من كانت المرأة عنده « ذاتا » ، وكانت صلته بها صلة الإعزاز الشامل والمودة السابغة ، فطلبه لها ليس طلبا بهيميا أعمى ، بل هو تكميل للمودة وتتويج للإعزاز فى مظهره الحسى الأقصى .

هكذا يكون الترابط بين جنسى الإنسان ، ترابطا لا ينحط بهما إلى درك الحيوان . وشتان رغبة نملكها ونستخدمها ، ورغبة تملكنا وتستخدمنا .

وما كان محمد رجلا هزيل الحيوية واهن الوظائف .

ولكنه كان يملك حيويته ولا تملكه حيويته . ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه . فهى قوة له تحسب فى مزاياه ، وليست ضعفا يعد فى نقائصه . .

لم يكن أبو القاسم معطل النوازع . ولكنها لم تكن نوازع تعصف به . . لأنه يسخرها فى كيانه فى المستوى الذى يكرم به الإنسان حين يطلب ما هو جميل وجليل فى الصورة الجميلة الجليلة ، التى لا تهدر من قدره بل تضاعف من تساميه وعفته وطهره .

وبيان ذلـك فى أمر بناته بزوجاته التسع . وهو التفصيل الذى خصصنا له بابا مستقلا ، بعد أن أوضحنا المبدأ ، وأقمنا ميزان النفس متميزاً عن مغالطة الإحصاء العددى لمن فى عصمة الرجل من نساء . .

المصانعة والوفاء

تسع زوجات جمع بينهن محمد .

عدد ليس بالقليل . .

ولكن العبرة ليست بالعدد . ولكن العبرة بالظروف التى أفضت به إلى الجمع بينهن . . ومنها ظروف اجتماعية ترجع إلى الأحداث التى كان هو محورها ولا يمكن أن يعفى نفسه من المسئولية والالتزام ببعض آثارها . ومنها ظروف نفسية مرجعها إلى عواطفه ومراميه .

ولا نفهم هذه الظروف حق فهمها إلا إذا قدرنا المرحلة الطويلة من عمر أبى القاسم قبل زواجه من التسع اللواتى جمع بينهن .

مرحلة طويلة من عمره ، مداها ربع قرن من الزمن ، هى فترة الشباب العارم ، والرجولة الفتية . ولم يكن فيها زوجا للعدد العديد من الحريم . بل كان بعل امرأة واحدة هى خديجة بنت خويلد .

بعل امرأة واحدة تكبره بنيف وخمسة عشر عاماً . تزوجها وهو فى الخامسة والعشرين . وتزوجته وهى فوق الأربعين ، وقيل وهى تناهز

الخامسة والأربعين . وماتت وهى فوق الخامسة والستين على الأقل ، وكان هو فى الخمسين .

ربع قرن لم تكن فيه هذه الزوجة الواحدة مقنعا لشاب فى سن ابنها لو كان هذا الزوج أخا شهوة ، لا نقول جامحة . . بل نقول متوقدة ذات سلطان على نفسه .

ربع قرن لم تكن فيه الزوجة الواحدة فرضا مفروضا عليه ، والبيئة لا تعرف إلا التعدد الذى لا حصر له . وليس التوحد فى الزواج قيمة متفقا عليها هناك فى ذلك الزمن .

ولو كان محمد أخا مجانة لما كان ذلك مستغربا لدى أحد ، إلا أنهم كانوا جديرين أن يتشدقوا به أول ما يتشدقون بالمطاعن على الرسول يوم نهض بالدعوة إلى عبادة الله وما ينبنى عليها من التعفف والاستقامة والطهر ، كانوا جديرين أن يتصايحوا أول ما يتصايحون :

ـ ما هذا الذى خرج علينا به محمد من الدعوة إلى العفة ، وهو الذى عهدناه كذا وكيت . . ؟!

وما تورعوا عن التلفيق فى التهم ، فما الذى أسكتهم عن هذه لو أنها كانت صحيحة مشاهدة ؟ ولكنها لم تخطر ببالهم على كثرة ما رموه من البذاء . . لسبب واحد لا يعقل سواه :

إنه كان فى سلوكه الشخصى على نقيض ذلك ، وكان مشهوراً بالتزام العفة والطهر والبعد عن الشبهات ، وناهيك بالفواحش

والموبقـات . فوقفت شهرتـه هذه حائـلا دون الافـتراء على لسان معاصريه ومناهضيه من أولياء الكفر فى قريش . .

فالفجور فى عصر الفجور لم يكن شيمة محمد . ولم يكن مكلفاً بعْد برسالة . كان حكمه ـ فى نظر الناس ـ قبل البعثة حكم كل شاب آخر من بيوت قريش الرفيعة .

ليس إذن من سبيل أمـام المفـترين الأجـانب إلى رميه بجموح الشهوة فى تلك الحقبة المديدة من عمره ، وهو شاب أو رجل مكتمل الفتوة ، خالى البال من الأعباء التاريخية الجسام التى تستنفد الحيوية وتستأثر بالاهتمام .

فكيف يوفقون بين هذه وبين ما رموه به فى عهده المدنى الحافل بالأحـداث والهمـوم ، من نقـائص الاشتهاء الجامح والتهالك على مناعم الحريم . . ؟

هل يتنـازلون عن افترائهم عليه فى عهده الأخير ، لما فى صدر عمره من تكذيب واقعى ملموس ؟

معاذ الأكذوبة ومنطقها الخبيث !

لن يتنازلوا عن دعواهم فى الشق الأخير من عمره ، وهو مهاجر محارب محمل بالأعباء الكبار ، وقد جاوز الخمسين . . فلن يدعوا له صفحـة عهـده المكى ، عهد زواجه بخديجة ، حجة مسلما بها على العفة والجد والوفاء . . بل سيوجهون همهم كله إلى تلطيخ الصفحة النـاصعة ، كى يجعلوا منها تهمة أو فرية قائمة برأسها ، لا تقل فى

خساستها عن فرية استعار الشهوة ، لعلها من بعض الوجوه أخس منها وأوبق للمروءة . .

لا حيلة لهم فى أنه لم يتزوج بغير خديجة لتلك المدة المديدة ، وأنه أخلص فلم يخادن ولم يقارف الفجور والزنا . ولم يتله عن معاشرته لتلك العجوز بما يسرى عنه ويخفف ضيقه المزعوم ، مثل معاقرة الخمر أو العكوف على أنواع الميسر التى فتن بها القرشيون فى الجاهلية .

لم ينكروا ذلك إذن . ولكنهم يلتوون به وبتأويله على هواهم اللئيم : سيقولون أنه لم يكن يفعل فى تلك الفترة شيئاً من ذلك لا عن عفة أو حب ووفاء لخديجة . بل عن جبن ، وعن مصانعة لهذه الثرية التى عرف فى كنفها الرخاء واليسر والترف ، بعد اليتم والفقر والشظف . .

هو إذن مصانع وليس بقانع . يخفى طمعه فى اللذائذ ، لخوفه من زوال النعمة والعودة إلى الحرمان وضيق العيش .

وهو زعم لا ينهض على قدميه لحظة واحدة أمام الواقع الذى لم ينكره ألد عداته من القرشيين واليهود .

إن سن الخمسة والعشرين التى تزوج فيها محمد من خديجة ليست بالسن الصغيرة فى بيئة شبه بدوية كبيئة قريش . فهى سن متأخرة للزواج . وكان محمد معروفا بالوسامة . ولكن حياته إلى أن تزوج كانت خالية من المغامرات المعهودة يومئذ . فكان على غير المألوف ـ حييا منطويا مستقيما .

لقد لقبته قريش قبل زواجه بالأمين . . والأمانة التى بهرتهم حتى نسبوه إليها هذه النسبة التى تجرى مجرى المثل هى الأمانة فى المال لأن ذلك أبرز ما يلفت نظر بيئة من التجار ، فى بلد تقوم حياته كلها على التجارة فلا صناعة فى مكة ولا زراعة .

ولكن ما الأمانة فى المال ؟

هى الصمود للمغريات ، مع سهولة الوصول إليها .

وكذلك كل أمانة ، فى المال وغير المال . ومنها الأمانة على الأعراض .

إن القوة النفسية التى تجعل صاحبها يصمد لإغراء المال أو الكسب الحرام وهو فقير ، هى بعينها التى يمكن أن تتجه إلى إغراء الجنس أو اللذة الحرام ، كى تمنع صاحبها من الزلل ، فإذا هو « أمين » .

وما اهتم القرشيون بذلك الأمر من أمور الحياة الذى لا يعنى إلا صاحبه ، وهو أمر العرض ، أو الجنس . لأن المال كان أمراً يتصل بالجماعة كلها ، ويعود نفعه وضرره على أناس غير الشخص الأمين أو الشخص الخائن . ولذا كانت أمانة محمد فى الأموال مضرب المثل . وهى فى الواقع أمانة فرعية ، أصلها الأمانة الكبرى وهى قوة النفس التى تلجم صاحبها عن تجاوز الحدود وإن كان ذلك التجاوز ميسوراً .

وتلك القوة الأصيلة الكامنة هى التى ألزمته حدود الا يكترث لها الناس فى تلك البيئة لذلك العهد ، وهى حدود العفة فى الجنس ، والأمانة على العرض . .

لا زوجة يومئذ له ولا رقابة ولا إلزام من العرف بالعفة . ولكنه كان العفيف الأمين . يضن بنفسه عن خساسة الفحش والفجور ، لأن نفسه المترفعة الصافية كريمة عليه ، والكرامة تلزم صاحبها حدوداً أضيق مما يلتزمه الناس ، وأضيق مما تفرضه أحوال المجتمع على سائر الناس . . فمحمد الشاب الوسيم غير المتزوج هو الذى فرضت عليه نفسه هذه الحدود المرهقة لكل نفس فى تلك البيئة سواها . .

. . . ﴿ **ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** ﴾ . .

* * *

عفة غريبة المعدن فى تلك البيئة قبل الزواج . على اكتمال فى الشباب ، ووسامة فى الخلقة ، وافتقار .

لمن شاء أن يتخذ إلى لذته سبيلا . .

ما القول فى ذلك يا معاشر « الحصفاء » ؟

ألا يتفق ذلك مع عفته وقد تزوج فى الخامسة والعشرين ، وعاش خمسا وعشرين أخرى مثال العفة والطهر ؟

أكان ذلك من آيات الجبن والمصانعة والرياء ؟

وجبنا من ماذا ؟ ومصانعة ورياء لمن ؟

لم يكن قد تزوج خديجة بعد حتى يصانعها أو يخاف سخطها الذى يتعللون به فيما يفترون .

ولكن فترة ما قبل زواجه من خديجة لا يجدون لهم عليها مطعنا ، ولذا يتركونها لتكون مطاعنهم كلها بادئة بزواجه .

أليست خديجة ثرية ، متقدمة فى السن ، وهو شاب وسيم فقير عامل على تجارتها ؟

هو إذن ـ فيما يزعمون ـ تزوجها طامعا ، وأخلص لها فى حياتها مرائيا مصانعاً ، حتى إذا ماتت انطلق على سجيته فى طلب النساء لا يجد من ذلك مانعا ولا رادعا . .

والفرية من أولها بغير أساس .

لقد طلبت خديجة محمدا قبل أن يطلبها محمد .

خديجة سعت إلى الزواج من محمد ، قبل أن يسعى محمد للزواج من خديجة . .

فأين الطامع هنا وأين المطموع فيه يا أولى الألباب ؟

هل يعتبر طمعا أن ينطوى الشاب على نفسه ، ولا تجد المرأة مندوحة من تنبيه إلى استعدادها للزواج منه لميلها إليه ؟

ماذا تكون العفة إذن ، والنأى بالنفس عن نطاق الطمع والتهالك على المنافع ؟

كان فى وسعه وهو عاملها على التجارة أن يستغل الظروف للتودد إليهـا كى يستميل قلبهـا ويضمن قبولها إياه زوجا على فقره الشديد وثرائها العريض .

لو فعل ذلك لجاز أن نقول طامع وصولى اهتبل الفرصة كى يبيع شبابه ويثرى . .

ولكنه فعل نقيض ذلك على خط مستقيم . .

عاد إليها من الشام بربح وفير ، وأدى إليها الأمانة كاملة ، وأخذ نصيبه أو جُعله المتفق عليه ثم انزوى بعيداً عنها ، إلى أن جاءه رسولها يعرض عليه الزواج منها . .

ومصادر التاريخ مجمعة على أن الطلب والعرض كانا من جهة خديجـة ، سواء بصفـة مباشرة ، أو بوسـاطـة رسـول . فمحمـد ابن إسحـاق المـطلبى يقول أنها عرضت عليه نفسها من غير وساطة ، ويروى ابن هشام أن عبدها ميسرة الذى صحب الرسول إلى الشام فى تجارة خديجة عاد ليحدثها عن دماثة خلقه وأمانته وعفته وترفعه عن الصغائر والدنايا ، ثم يقول ابن هشام :

ـ وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامـة ، فلما أخـبرهـا ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ فقـالت له ـ فيما يزعمون ـ « يا بن عم إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسـطتـك (شرفـك) فى قومـك ، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك » . وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهن

شرفا وأكثرهن مالا . كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه .

ويقول غيرهما من كتاب السيرة أنها لم تبعث إليه مباشرة ، بل أرادت أن تعرف هل يرضاها هذا العزوف المتباعد لنفسه زوجا لو عرضت نفسها عليه . والتمست من « يجس نبضه » . وكانت صاحبة لها تدعى نفيسة بنت منبه - فيما يقال - هى التى قامت بجس النبض لمصلحة خديجة بنت خويلد ، ذهبت إليه وسألته ذلك السؤال الذى توجهه كل امرأة - ولاسيما من بلغن الكهولة - إلى كل شاب طال إعراضه عن الزواج مع صلاحه له :

- ما يمنعك أن تتزوج وأنت شاب وسيم وسيط فى قومك ؟ أليس الأخلق بك أن تتزوج لتجد فى كنف زوجك ما يحتاج إليه الرجل من خفض العيش والرعاية والولد . . ؟

وأجابها الشاب الوسيم الحيى فى ابتسام ينبىء عن الحرج :

- ما بيدى ما أتزوج به . .

فاغتنمت الفرصة لتستدرجه إلى ما تريد صاحبتها وقالت :

- فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟

فسألها متعجبا :

- فمن هى ؟

فلم تزد نفيسة على أن قالت كلمة واحدة ، لا حاجة بعدها إلى إطناب :

ـ خديجة !

وعجب محمد وكان له أن يعجب ! فأكبر قومه وسراتهم طلبوا يدها وألحوا فى ذلك منذ ترملت فردتهم جميعا وضنت بنفسها عليهم . فسأل نفيسة فى حيرة :

ـ وكيف لى بذلك ؟ !

وأسرعت نفيسة تقول له :

ـ ذلك علىَّ . .

فلم يتردد فى إعلان قبوله .

وانصرفت نفيسة لتعود إليه بعد برهة وجيزة بتحديد الساعة التى يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا آلها فى بيتها ويتم القران .

هذا هو حديث ذلك الزواج الأول ، لا تجد فيه دليلا على « وصولية » أو « انتهازية » مما يزعمون . وإنما نجد شابا وكهلة فى سن أمه أو أسن منها . فلو عاشت أمه آمنة بنت وهب لما تجاوزت الأربعين يومئذ . ونجد هذه الكهلة تعزف عن الزواج لأنها أنست فى الخاطبين السراة الثراة طمعا فى ثروتها الطائلة ، فاعتصمت بالإباء . حتى وجدت ذلك الشاب الفقير وجربت أمانته وعفته وعزة نفسه . فأدركت أن له خلقا يعصمه عن الطمع فى مالها ، فأحبت أن يكون زوجها . .

فظروف ذلك الزواج إذن وأسبابه على نقيض ما يزعمه المفترون من التكالب أو الرياء أو المصانعة .

ولا نحب أن يخطر ببال أحد أن تقدم المرأة الأيم لطلب رجل تراه أهلا لها أمر خارق للمألوف الذى درج عليه العرب . فهم يدرجون على القول المأثور :

« تخير لابنتك واخطب لها ، ولا تتخير لولدك أو تخطب له ! » . .

وعلى هذا المنوال نسج كثيرون من عليتهم وأشرافهم ، فهذا عمر ابن الخطاب يعرض ابنته حفصة على صاحبه أبى بكر بن أبى قحافة ثم على صاحبه عثمان بن عفان . .

فليس فيما فعلت خديجة ما يسقط مروءتها أو يقلل من قدرها الرفيع بين قومها . .

ولم يكن من أمره بعد زواجها ما يدل على إسرافه فى مالها ، كما يفعل النفعيون الذين يتزوجون العجائز الثريات . . فلم يعمد إلى البذخ فى مظهره ، بل كان متواضعاً عفيفاً . ولم يعمد إلى القصف مع أبناء المياسير إظهاراً لثرائه الطارىء . . بل ازداد تباعده عن كل ألوان القصف . وزاد زهده فى الرخاء والترف . وصار يقضى الكثير من وقته صائماً معتزلا للناس وحده فى الجبل . . حتى كانت خديجة تخرج للبحث عنه مع خدمها ، كما تبحث الأم عن ابن لها أقلقها طول غيابه وتحمل إليه هناك الطعام . . زاد الرجل بالزواج من الكهلة عفة واستقامة . .

وزاد الرجل بالزواج من الثرية نزاهة وعزوفاً عن البذخ والترف .

فأين الطمع هنا ، وأين الوصولية ؟

لا طمع ولا وصولية ولكنها الأكذوبة التى لا تتورع ولا تستحى .

ونمضى خطوة أخرى مع الكذاب ، حتى نصل معه إلى الباب . .

إن كان للوصولية موضع فى حياة خديجة ، فلن يكون لها موضع وقد ماتت ، فإذا به يحزن عليها حزنا شديدا . وإذا حزنه يطول فى حين اشتد عليه اضطهاد القرشيين وإيذاؤهم لشخصه ، وقد زاد من جرأتهم عليه موت عمه أبى طالب فى تلك السنة أيضاً .

وأدرك المؤمنون القلائل فى ذلك الحين أن نبيهم فى حاجة ماسة إلى من يؤنس وحشته ويخفف عليه أعباء الجهاد ومتاعب الاضطهاد ، وأن طفلته الصغيرة فاطمة الزهراء بحاجة إلى عناية الأمهات . .

وندب المؤمنون لمفاتحته فى ذلك خولة بنت حكيم ، فتلطفت فى ذلك ، ثم عرضت عليه أن يتزوج .

فمن التى تزوجها ذلك « الشهوان الوصولى » المزعوم ؟

سودة بنت زمعة امرأة متقدمة فى السن ليس لها جمال خديجة ، ولا مال لها على الإطلاق ، ولا جاه . حظها من الذكاء غير كبير . وإنما هى أرملة بدينة طيبة القلب لها مشية كان زوجها العظيم يضحك منها ، وكانت فيها دعابة وليس فيها للرجال مأرب .

لماذا تزوجها إذن ؟

لأن زوجهـا كان من أصحابه القلائل الأولين ، وهاجر بها إلى الحبشة فيمن هاجر ، وقيل مات هناك ، وقيل عاد من المهجر معها فمات وبقيت سودة أرملة منقـطعة ، وقد بت إسلامها ما بينها وبين أهلها ، ويخشى أن يردوها عن الإسلام وقد عادت إلى بيت أبيها ، وليس لها ما تعيش منه . ولا صنعة بيدها .

وما كان أحرى ذلك « الوارث » أن يعوض ما فات عليه فى ربع قرن من اللذات ، لو أنه كان الرجل الذى يزعمون . .

ونخطو خطوة أخرى مع الكاذبين . .

* * *

أى مصانعة هذه التى تجعل الزوج يفى لزوجته بعد مماتها بسنين وسنين ، فلا يذكرها إلا رق قلبه ولهج لسانه بالترحم والثناء ؟

وهـل ينسى المنصف ما حدث بعد موقعة بدر ، وقع « أبو العاص ابن الربيع » زوج ابنته زينب بنت محمد فى الأسر ، وكان يومئذ على دين أبيه مستمسكا بالكفر . وطولب أبو العاص بالفدية فجاءت وفيها قلادة كانت لأمها خديجة بنت خويلد . وكأنما تمثل له جيد صاحبتها الـراحلة ، وكم التمس فوقه من عزاء ، وكم نعم فوقه بالراحة من وعثـاء الجهاد وعناء الدعوة ، وما يلقاه من صدود وجفوة وقسوة . . فالتفت إلى أصـحابه ينشدهم أن يردوا القلادة إلى زينب ويفرجوا عن زوجها المأسور ، إكراماً لتلك الذكرى العزيزة . .

وأبو العاص بن الربيع من هو ؟ أليس ابن أخت خديجة ، ابن هالة بنت خويلد ؟ كانت خديجة تعده بمثابة ولدها وهى التى أشارت على زوجها أن يزوجه من ابنتها زينب قبل بعثته .

وقد يتلكأ ذو غاية فى هذه المناسبة ، فيزعم أنه ربما رق لمرأى القلادة ، لأنه تذكر ابنته ، ولأن هذه القلادة كانت من قبل لخديجة ثم « أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها » كما جاء فى سيرة ابن هشام .

ولكن ما القول فى أمر وقع بعد ذلك بأعوام ، ولا شبهة فى أن تكون عاطفته فى تلك المناسبة منصرفة إلى الوفاء للزوجة الأولى التى غبر على موتها زمن مديد ؟

وكانت عائشة بنت أبى بكر ، على صباها وملاحتها ، وهى البكر الوحيدة التى تزوجها ، تقول أنها لم تغر من امرأة إلا خديجة « وكأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة » .

وكانت عائشة كثيرا ما تغار عليه منها كلما ذكرها ، وضاقت ذات يوم بها فى صدرها فهتفت مغيظة محنقة :

ـ ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر وأبدلك الله خيراً منها ؟

فإذا وجه ذلك الصانع الذى يزعمون يربد ، ويصيح بعائشة فى زجر وتقريع عنيف :

ـ والله ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء . . .

ولم تجسر عائشة الزوجة الشابة ذات الحظوة أن تجرى ذكر خديجة على لسانها بعد تلك الغضبة .

* * *

فمن ذا الذى كان محمد يصانعه وهو يفى لخديجة هذا الوفاء الجميل الذى يستحق أن يكون مضرب الأمثال لسائر الأزواج ، رجالاً ونساءً !

أتراه كان يصانع التى ماتت ليغضب التى يعيش معها ويحبها ؟ ما القول فى هذا الوفاء المعجز ، والدنيا حافلة من حولنا بأمثلة العقوق ونسيان الفضل وخيانة العهد ؟

فليقل من شاء ما يشاء ! ولكن لا حيلة فى نسبة محمد إلى الوفاء غاية الوفاء . إلى وفاء يكاد يجعلنى أشك فى بشريته ، وأنا الذى جربت من فنون التنكر والمروق ما أوشك أن يقضى على ثقتى بسائر خلق الله من أبناء آدم وبنات حواء .

لقد رأيت المرأة التى أنجبت من رجلها فى ربع قرن اثنتى عشرة مرة . وكان رجلها يحبها ويدللها . وكان آية فى الرجال وسامة وعقلا وخلقا وحنانا وبرا . حتى إذا مات عن امرأته تزوجت وهى جدة لأربعة حفدة . وما فى ذلك معابة ، ولكن المعابة أشد المعابة ، أن

أصغـر أبنـائهـا من زوجهـا ذاك صارت تنسبـه إلى زوجها الثانى ! وجعلت تكرر على سمعه ، وعلى مسمع من سائر الناس أن أباه كان شر الرجال . وأن حياتها معه كانت نوعاً من الوبال والنكال ، ولم تزل تقول ذلك وتعيده حتى صار ذلك الطفل ابن عشرين . وتقوله كاذبة آثمة متبرعة به بعد أن مات زوجها الثانى بسنين . وما تقوله إلا لتدفع اتهـاما فى طوايا سريرتها ينسبها للعقوق فخالت أنها بتلك المفتريات فى حق من ذهب وصار رميما وترابا تغنم دفع اتهام تتمثله فى ضميرها ، وتسكت عنه صغيرها الناشىء فى كنف زوج أمه ، وتلجم أفواه بنيها الكبار وحفدتها الصغار . .

مثل فى خيانة العهد ، والتبرع بالتجنى والافتراء على زوج كان أولى الناس بطيب الذكر منها . أمام بنيه وبنيها .

ومثل فى صيانة العهد ، والغضب لذكرى زوج راحلة ، لا أمام بنيها ، بل أمام ضرتها !

هذه هوة سحيقة ، وتلك قمة شاهقة .

وبضدها تتميز الأشياء . .

فهل هذان الطرفان فى الغدر والوفاء يجمعهما جنس بشرى واحد ؟

عجبى من عقـول آدمية تنسب أبا القاسم للمصانعة ، حيث يضرب المثل المذهل المعجز للأريحية والوفاء الذى لا يبارى .

وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد . .

النـزوة والنخـــوة

زوجة واحدة نيفا وربع قرن ثم ظل وفيا لذكراها حتى مات .

والآن ما خبر زوجاته التسع ؟

ما خبر ذلك العدد الذى سجله التاريخ بحذافيره وتفاصيل ظروفه واتخذه المفتاتون للمغالطة والتجريح ، فنسبوه إلى الشهوة الجموح ؟

ونبدأ فنقول أنهن كن تسعا جمع بينهن فى وقت واحد . ولكن مجموع من تزوج بهن بعد خديجة كان عشراً ، ماتت إحداهن ولم تلبث فى بيته إلا أسابيع معدودة ، وهى زينب بنت خزيمة التى لقبت بأم المساكين لشدة حبها للفقراء وعطفها عليهم وبرها بهم .

ولهؤلاء الزوجات العشر نتعرض ملمين بظروف زواج محمد بهن ، لنرى فى دوافع زواجه بكل واحدة منهن عناصر الشهوة التى يقولون فيها ويعيدون .

وأظننا أوضحنا بما فيه الكفاية أن كل صلة زوجية بين رجل وامرأة ليس حتما محتوما أن يكون دافعها الشهوة المعيبة . وأن هذه التهمة

تحتاج إلى دليل كاف لقيامها غير دليل الإحصاء العددى . فالشهوة شعور يدخل فى باب الكيف ، والعدد يدخل فى باب الكم ، وقد تتوفر كيفية الشهوة مع كثرة الكمية أو لا تتوفر . لأنه لا ارتباط هناك بين التعدد وجموح الشهوة .

ونحن الآن وراء تطبيق هذا المبدأ ، نتعقب كل زواج من تلك الزيجات العشر ، لنرى ما قام عليه من البواعث والغايات . .

ونبدأ بالسيدة سودة بنت زمعة .

وهى ـ كما أشرنا منذ قليل ـ أرملة عجوز مات عنها زوجها ، وكان من أوائل المصدقين برسالة محمد ـ فلما اشتد اضطهاد القرشيين له ولأمثاله هاجر فيمن هاجر بأهله إلى الحبشة ، حيث نزلوا فى رحاب النجاشى أمدا . . عسى أن يبدل الله العسر يسراً ، وتزول عماية الكفر عن أهل مكة فيعودوا إليها آمنين .

ولم تكن الأخبار لذلك العهد منوطة بأسلاك البرق أو موجات الأثير التى تذيع النشرات كل يوم عدة مرات . . فلما طال المكث على « السكران بن عمر العامرى » زوج السيدة سودة ظن أن الأمور قد تحولت إلى جانب المسلمين ، وعاد بها إلى أرض العرب .

ومات السكران عقيب وصوله ـ فيما يقال ـ وترك زوجته مهيضة الجناح ، معرضة لنكال أبيها الذى كان على الشرك . فإن تركت تحت سلطانه لم يؤمن على دينها منه . وهى لا سند لها ولا عائل ولا صناعة .

وكان الموقف عصيبا . فالمسلمون والمسلمات فى ذلك العهد قليل عددهم فى قريش غاية القلة ، والتنكيل بهم على أشده بعد أن مات

أبو طالب عم الرسول ، حتى اجترأ المجترئون على إيذائه إيذاء بدنيا عنيفا ، بعد أن كان جل إيذائهم من قبل باللسان والإشارة . .

وإذا كان هذا حال الرسول ، فكيف يكون حال من دونه من أتباعه ؟ ثم كيف يكون حال امرأة فقدت زوجها ولا نصير لها ؟

محنة اهتزت لها قلوب المؤمنين وشغلت بالهم . وكان التكافل هو الواجب الأول والخاطر فى كل ذهن :

من الواجب أن يضم رجل مسلم مثل هذه الأرملة المهددة فى دينها ، المطعونة فى طمأنينتها ، المستوحشة بفقدان عشيرتها . والتعدد ليس سنة مستحدثة فى العرب ، بل ذلك حالهم منذ قديم .

وأولى الناس بضم مثلها من لا زوجة له . .

والرسول يومئذ بغير زوجة . فإذا تعرضت المؤمنة « خولة بنت حكيم » لمفاتحته فى الزواج ليجد الرعاية والراحة ، ولتجد طفلته اليتيمة فاطمة الرعاية والخدمة ، نراها تقترح عليه الزواج بتلك الأرملة العجوز الكسيرة الفؤاد المعرضة للفتنة عن دينها أو الإيذاء بسببه .

وكأنما كانت خولة تذكر له واجبا مفروغاً منه ، فما ينبغى أن يتزوج مسلم (وما أقل عدد المسلمين يومئذ) تاركا سودة لمحنتها ، متخطيا إياها فتزداد شماتة الكفار بها . فهل كان محمد ، إذ ارتضى الزواج ، الرجل الذى يتخلى عن هذه المسكينة فيعرضها للقهر والشماتة ؟

معاذ النخوة !

ليتزوجها إذن ! لتكون مدبرة لبيته ، ومربية لابنته ، لا لتكون متعة حس ولذة مضجع ، تزوجها لتكون فى كنفه ، وتنعم بظله وعطفه ، ولتجد فى الزواج منه شرفا وعزاء وعاصما من النكال والردة . ولتحل بين أبناء دينها الجديد أرفع مكانة تصبو إليها المرأة المسلمة : مكانة « أم المؤمنين » .

وإن هى إلا سنوات قلائل حتى أحست العجوز الطيبة القلب أنها عبء على كرم زوجها وبره ، فاستأذنته أن تظل فى بيته وتعفيه من حقوق الزوجية ، فهى على حد قولها :

ـ والله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك !

وبقيت هناك تصلى وتصوم وتتصدق ، « زوجة شرف » لا أكثر . وما كانت تصلح من الزواج إلا لهذا ، وما صلحت لهذا إلا لنخوة فى ذلك الرجل الذى ينسبه « أولاد الحلال » لجموح الشهوة !

هذا هو أول حظه من النساء بعد وفاة خديجة . وما هو بحظ الملهوف على لذات الفراش بعد طول مصابرة ومصانعة .

ونرجىء القول فى عائشة بنت أبى بكر ، فسنفرد لها فصلا خاصا بها . . فننتقل إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب . .

كانت زوجة لخنيس بن حذافة ، من بنى سهم ، هو أحد المسلمين القلة الذين شهدوا غزوة بدر وانتصروا على أضعاف عددهم من أهل الكفر .

وبعد قليل من تلك الموقعة مات خنيس بن حذافة . وترك بعده الأرملة الشابة ، وسنها لم تجاوز الثامنة عشرة .

وعمر بن الخطاب رجل حاد يأخذ العدل فى الحياة مأخذ الجد الذى لا هوادة فيه . فلم يجد من العدل فى شىء أن تظل ابنته الشابة من غير زوج يصونها ويذهب عنها لوعة الترمل وذله . . وهو يعلم أن المرأة حيية لا تطلب لنفسها ولا تفصح عن دفين حالها . وذلك أدعى إلى إلقاء الإحساس بمسئوليته عنها على عاتقه .

والمسلمون فى دار الهجرة قلة بين العرب ، شبيه حالهم بما كانوا عليه فى قريش قبل الهجرة من قلة العدد وضيق الحال ، كما أسلفنا بيانه عند الحديث عن ترمل سودة بنت زمعة وما شعر به المسلمون من واجب إزاء زوجات شهدائهم المترملات .

بل إن الحال زاد اليوم عنصراً جديداً ، هو عنصر موت الرجال وتساقطهم فى الغزوات ، فيتجه عدد الذكور إلى القلة ، ويتجه عدد الإناث المترملات إلى الكثرة .

ونشأت عن ذلك حالة اجتماعية جديدة أوحت بحل ليس أيسر منه ولا أقرب إلى البداهة فى بيئة قامت منذ قديم الأزل على تعدد الزوجات : أن يحمل كل أخ فى الإسلام عن أخ له أو ند شيئا من أعباء تركته ، فيصون زوجته من الترمل ، والوحشة ، ويعصمها من الفتنة أو المذلة ، ويدافع عنها الحاجة لا بصدقة تأباها أو تهدر قدرها ، بل بزواج يقيم ظهرها ويرفع رأسها ، كى تدرك كل مسلمة أن الجهاد فى سبيل الدين لن تكون عاقبته الخذلان والخسران وزوال الستر عن

كل ذات خدر . . وذلك أدعى لاندمال الجرح والإحساس بالتكافل فى العسر . .

وعلى أساس هذا الإحساس ذهب والد الأرملة الشابة فى جده الصارم ينشد لها زوجاً على وجه السرعة .

وكان طبيعيا أن ينشد لها زوجاً يحمل زواجه بها معنى التعزية والتكريم وحسن العوض عن زوجها الراحل . .

ونظر عمر فلم يجد بين المسلمين المهاجرين من هو أكرم وأبرز من صديقه أبى بكر الصديق . ولم تكن مسألة السن عند العرب ذات بال ، فلم يرده عن ذلك الخاطر أن أبا بكر أكبر منه سنا ، وذهب إليه يعرض عليه الزواج من ابنته ، لتكون ضرة لأم رومان حماة الرسول ، وأم عائشة . .

ولم يجبه أبو بكر ، فتركه عمر ساخطا غاضبا . .

ولكن ذلك لم يثنه عن غايته ، فاتجه إلى الصاحب الآخر الشيخ الجليل الوقور عثمان بن عفان ، الذى كان متزوجا من السيدة رقية بنت محمد ثم ماتت عنده ، وبقى محزونا عليها لا يتزوج .

ودخل عمر على عثمان وعرض عليه الزواج من ابنته حفصة ، فما زاد الشيخ الوقور على أن رده قائلا :

ـ ما أريد أن أتزوج اليوم !

وكأن من شأنه أن يتزوج فى كل يوم حتى استثنى ذلك اليوم . . !

وانصرف عمر بن الخطاب وهو لا يكاد يرى الطريق من شدة الغيظ والغضب . وناهيك بعمر إذا غضب !

طعنتان قاسيتان من صاحبين جليلين هما أعز أصدقاء العمر ، والنصراء على العسر واليسر . . فاللطمة منهما تزلزل كيان رجل جبار مثل ابن الخطاب ، ولا ينتظر أن يذهب أثرها من نفسه وشيكا . .

ولكن كيف كانت حفصة ؟

لم يذكر التاريخ عنها أنها كانت ذات حسن باهر أو جمال آسر . . ولا نعتقد أن أباها كان يجشم نفسه كل هذا العناء ـ وهو من هو كرامة واعتدادا بنفسه ـ لو أنها كانت ذات ملاحة ظاهرة .

وذهب عمر إلى الرسول والغضب يكاد يذهب بلبه ، فتلقاه وهو أعلم الناس بحدة طبعه واستوضحه ما يعانيه من الكرب ، فذكر له ما فعل صاحباه . وكيف رداه ذلك الرد وقد نشد لديهما النخوة والأخوة . ومن ذا يجامل عمر إن لم يجامله فى ابنته أبو بكر وعثمان بن عفان ؟ من ذا يقبلها إذا اعتذر عن ذلك أو ضاق به هذان ؟

وأدرك الإنسان الكبير القلب ما يعانيه صاحبه الكبير من الألم والمضاضة ، وتصرف بوحى من كياسته ونخوته فقال له مواسيا :

ـ يتزوج حفصة من هو خير من عثمان . ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة !

وفطن عمر إلى المعنى الوحيد الذى يستفاد من أن حفصة سيتزوجها من هو خير من عثمان : إذن سيكون هو الزوج ! وسيسوى الرسول فى المصاهرة بين صاحبيه الكبيرين : أبى بكر وعمر . .

هو إذن الشرف الذي تجاوز كل أمل له !

ومرة أخرى دخلت البيت الكبير زوجة لم تضمها إلى محمد عرامة الشهوة ، بل نبالة النخوة . .

وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر قول أبيها عمر لها ذات يوم :

- . . . والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك . ولولا أنا لطلقك !

وعسَى أن يكون فى هذا ختام الحساب فى أمر هذه الزوجة . .

لابد من المواســاة

ننتقل إلى « أم سلمة هند بنت زاد الركب » .

مجاهدة من المجاهدات الأوليات فى الإسلام . امتحنت فى دينها أشق امتحـان تبـلى به امرأة . فصمدت وانتصرت ، وصار لها حق عظيم فى رقاب المسلمين .

وعقيلة عزيزة الجانب ، رفيعة النسب . أبوها هو أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم الملقب بزاد الركب ، وكان ممن يضرب بهم العرب المثل فى الجود ، لأنه إذا سافر لا يسمح لأحد أن يصحبه ومعه زاد . بل يكفى رفاقه جميعاً زاد سفرهم مهما طال . .

ترملت . مات عنها زوجها شهيداً أو هو فى حكم الشهيد ، بعد بلاء حسن فى نشر الدين الجديد والذود عنه . وبعد انتصار كبير كان له أثر واضح فى تثبيت سمعة الإسلام فى نفوس قبائل العرب جميعاً وحفظ هيبة الدولة الناشئة بالمدينة من الانهيار . .

هذا الزوج هو أبو سلمة ، عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة ، الفارس الصحابى المغوار ، وابن عمة الرسول . وأخوه فى الرضاعة .

وكان الزوجان من أوائل المؤمنين المصدقين بالرسول وما أنزل إليه ، وعندما هاجر المسلمون الأولون إلى الحبشة فرارا بدينهم من عنت الأهل والعشيرة فى مكة كانا أول المهاجرين . وفى مهجرهما ببلاد الحبشة ولدت هند ابنها سلمة الذى عرفت به وكنى به أبوه عبد الله .

وعاد المهاجرون فيمن عاد إلى مكة على أمل انتهاء الأزمة ، فإذا النكال أدهى وأشد ، فلم يطق كثيرون من المسلمين البقاء ، وفكروا فى مهجر جديد ، وكان الصفوة السابقون من أهل يثرب قد اعتنقوا الإسلام . فكان طبيعيا أن يفكر هؤلاء القرشيون المغلوبون على أمرهم فى الهجرة إلى يثرب .

وكان أبو سلمة بن عبد الأسد أول من هاجر إلى يثرب من قريش ، ولكن هذه الهجرة كانت اجتراء على سلطان قريش خشيت عواقبه فراحت تحول دونه ما استطاعت ، فابتليت أم سلمة فى ذلك السبيل بلاء شديدا ، يذكره على لسانها ابن هشام بكلام يعصر القلوب :

لما أجمع أبو سلمة على الخروج إلى المدينة رحل لى بعيرى ثم حملنى عليه وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بى يقود بى بعيره .. فلما رأته رجال بنى المغيرة (عشيرة أم سلمة) قاموا إليه فقالوا :

- هذه نفسك غلبتنا عليها . . أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذونى فيه . وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد (عشيرة زوجها أبى سلمة) فقالوا :

- لا والله ! لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسنى بنو المغيرة (عشيرتها) عندهم .

وانطلق زوجى إلى المدينة . ففُرِّق بينى وبين زوجى وبين ابنى ، فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى سنة أو قريباً منها ، حتى مر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة فرأى ما بى فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة :

- ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها !

فقالوا لى :

- الحقى بزوجك إن شئت .

« ورد بنو عبد الأسد إلىّ عند ذلك ابنى فارتحلت بعيرى ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة وما معى أحد من خلق الله . . ووالله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ! . . » .

هذا هو جانب من جهاد هند بنت زاد الركب ، العقيلة بنت الأمجاد الأجاويد وما تحملته من الهم والإيذاء ، وما صبرت عليه من

آلام أصابت أمومتها وأصابت أنوثتها . فكانت مثال الوفاء ، ومثال التجلد ، ومثال الشجاعة والإقدام . .

وسجل لها تاريخ الجهاد أنها كانت أول مسلمة هاجرت إلى الحبشة ، وأول مسلمة هاجرت إلى المدينة . وكذلك كان زوجها أول صحابى هاجر إلى المدينة .

فهل مثل هذه المجاهدة الصابرة تترك لذل الترمل حين يموت عنها زوجها البطل ، الذى كانت منه فى خير ظل ؟

وكيف ترملت ؟

كان زوجها ابن عمة محمد أحد القلة المنصورة فى بدر ، وأحد القلة الثابتة الصابرة فى أحد ، وفى أحد أبلى فى النضح عن ابن خاله الرسول حتى أصيب بجرح غائر . .

وبعد شهرين من أحد ، بدأت القبائل تتواثب مجترئة على المسلمين ، وعلم الرسول أن « بنى أسد » فى مقدمة المتأهبين للهجوم ففكر فى تلقينهم درساً حتى لا يجترىء سواهم . وخير وسائل الدفاع المبادأة بالهجوم .

وعقد الرسول لابن عمته أبى سلمة لواء تلك البعثة الفدائية التى كان عدتها مائة وخمسين مقاتلا ، فيهم نفر من أعظم الفرسان وأكرم الصحابة ، من طراز أبى عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص .

وانتصر أبو سلمة ولكن ثمن النصر كان باهظاً ، أداه من حياته : لأن جرحه القديم فى أحد انتكأ فعاد إلى يثرب ليلزم فراشه حتى مات .

مات على صدر ابن خاله الرسول . سجاه بيديه ، وقد نال منه الحزن على فقده ، فظل يكبر عليه حتى بلغ عدد التكبيرات تسعا ، لشدة ما يجده لفراقه والأسى عليه . .

فارس عظيم وأخ كريم مات عن عقيلة كريمة ومجاهدة عظيمة وأطفال صغار ، صغراهم فتاة تسمى زينب لم تزل فى الرضاع .

وحال المسلمين كما بينت : الرجال الكرام يتساقطون ، والعقيلات الكريمات والأطفال اليتامى ينوشهم الترمل واليتم وتتهددهم الوحشة والانكسار . فلا خلاف هنا على واجب الصحب الميامين فى النجدة والمواساة .

الصدقة هنا لا تكفى ، وإن كفت لا تليق .

لابد من المواساة بالنفس !

ألا يتزوج الشقيق أرملة شقيقه ليصونها ويكون بنو أخيه الراحل تحت جناحه فيعفيهم من اليتم والتأيم ؟

ولم يتردد الصاحبان العظيمان أبو بكر وعمر فى القيام بحق النجدة والأخوة : بعث كل منهما إلى هند أم سلمة بنت زاد الركب يعرض عليها الزواج بعد انقضاء عدتها ليكون لها مكان عزيز فى بيت عزيز . .

وأبت أم سلمة !

وعندئذ رأى الرسول القائد أن يمد يده إلى أرملة أخيه فى الرضاع وابن عمته المهاجر الفارس الشجاع مواسيا بنفسه ، يطلب إليها يدها . .

مواساة يجللها الأسى على راحل عزيز !

وخجلت الأرملة المجاهدة الشجاعة ، وبعثت تعتذر بكبر سنها وكثرة عيالها . .

وفى لهجة الإصرار على المواساة والبر بعث يقول لها :

- أما أنك مسنة ، فأنا أكبر منك .. وأما العيال فإلى الله ورسوله !

أفى مثل هذا الزواج الذى أملته دوافع الأسى والنخوة يجترىء الآفكون على جلال ذلك الحزن النبيل فيذكرون لفظ الشهوة ؟

أى جرأة ! وهذا الزوج العظيم لا يدخل بيت هذه الزوجة الباسلة إلا وسألها عن صغيرتها بنت الراحل العزيز بصيغة التدليل :

- أين زناب ؟

يعنى صغيرتها الرضيع زينب بنت أبى سلمة . .

خيـر من ذلـك

أنتقل إلى زواجه من جويرية بنت الحارث ، سيدة بنى المصطلق . .

الدولة الناشئة فى المدينة أعز اليوم جانبا ، وفجر العصر الإسلامى يبشر بالانتشار فى ربوع الجزيرة العربية كلها على أثر غزوة الخندق التى باء فيها القرشيون وأحلافهم بهزيمة منكرة . وعلى أثر غزوة بنى قريظة التى اندثر فيها الخائنون للعهد . . فبرزت قوة هذه الفئة القائمة بالدعوة الجديدة فى المدينة وصار الأمل فى تقبل العرب لدعوتهم أعظم من ذى قبل ، وقد وضح أن ذلك الرسول تتوالى انتصاراته مع قلة أتباعه ، وكأن قوة غير منظورة تؤازره فى مواقفه الرهيبة ، فينجو من المهالك ، ويفوز فى المعارك على خلاف ما كان يتوقع كل من جرب الحروب وتمرس بدوائرها وأسبابها . .

وكان قد مضى على الهجرة إلى المدينة وقيام تلك الفئة المطاردة الملتمسة للأمن والنجاة خمسة أعوام . وبدأت السنة السادسة ، وجاءت « المخابرات » الدقيقة التى أنشأها محمد بعبقريته وإلهامه

تبلغه أن حيا من خزاعة وهم بنو المصطلق يتأهبون للهجوم على المدينه بزعامة شيخهم الحارث بن أبى ضرار .

وعلى سنته فى المبادرة بالهجوم على عدوه قبل أن يبدأه بالهجوم وقد تم استعداده ، انطلق كالصقر بجيشه فانقض على بنى المصطلق عند ماء المريسيع ، وحمى الوطيس إلى أن انتهى بهزيمة بنى المصطلق هزيمة منكرة ، وسيقت نساؤهم سبايا ومنهن ابنة زعيمهم « جويرية بنت الحارث » .

فتح مبين وسبايا وغنائم ، وعودة ظافرة إلى مقر الدولة فى المدينة . .

هذا شىء تقر به عين قائد ، ولكن ليس حسب رسول يدعو إلى دين جديد ، كل همه أن تفتح القلوب لدعوته ، وليس كل همه الغنم والسبى .

وعاد الجيش الظافر إلى المدينة ، وقد وزعت السبايا على المحاربين . فكانت بنت قائد بنى المصطلق من نصيب أحدهم .

ومثلها لا تصبح أمة تعامل معاملة الرقيق ، أو تباع بيع الإماء ، أو تمتهن بالخدمة أو التسرى . فعرض عليها الرجل أن يكاتبها ، أى تجمع له فديتها فيطلق سراحها فتعود إلى أهلها .

وخرجت بنت العز والشرف والجاه ، بنت القائد المهزوم هائمة فى شوازع المدينة لا تدرى كيف تحصل على فديتها من الرق .

وخطر لها أن تستثير نخوة القائد المنتصر ، فوقفت ببابه وهو يومئذ فى حجرة عائشة بنت أبى بكر . واستأذنت عليه ، ودخلت فى كبرياء متداعية وإباء مترنح تعرض عليه أساها وكربها :

- يا رسول الله ! أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ! وقد أصابنى من البلاء ما تعلم فوقعت فى السهم لثابت بن قيس . فكاتبته على نفسى . . فجئتك أستعينك على أمرى .

وما كان أشد وقع هذه الكلمات على فارس ذى مروءة ، ابنة عدوه المهزوم تستعينه ليقيل عثرتها وهو الذى هزم أباها وسبب ذلها ووقوعها فى السبى . . تمد يدها إليه ليأسو جرحها وسيفه هو الذى سدد الضربة ! ولينقذها من العار الذى أنزلته بها شريعة الحرب التى ويل فيها للمغلوب من الغالب !

كان ذلك الاعتبار حسب محمد كى يرق للأسيرة ، عزيزة قوم ذلوا فذلت ، وكى يعينها على نيل حريتها ومحو عارها واسترداد عزتها .

كان ذلك حسبه ، وهو الفارس القائد المنتصر .

ولكنه لم يكن حسبه وهو فوق صفة القيادة والفروسية ، وقبل صفة القيادة والفروسية ، رسول صاحب دعوة . يرجو أن تصل إلى القلوب العصية فتنفتح لها بعد استغلاق عنيد .

وكان الرسول هو الذى نبه هذا الموقف المؤثر آماله مثلما أثار نخوته ، فجمع بين الحسنيين فى عمل واحد فذ كسب به قلوباً جديدة وشعباً جديداً ، وأعلن لأشتات القبائل أن محمدا أكرم الناس وهو

منتصر ، وأن الولاء له والدخول فى دينه وطاعته أكرم لهم من مناجزة من كان على خلقه النبيل ، عداء لا طائل تحته . .

هذا زعيم خير للناس أن يغنموا الانضواء تحت رايته ، ورسول خير للناس أن يغنموا الاهتداء بمناقبه وإمامته .

وقال محمد للأسيرة عزيزة قوم ذلوا فذلت :

ـ فهل لك فى خير من ذلك ؟

فسألته متعجبة لهفانة :

ـ وما هو يا رسول الله ؟

فقال لها فى ترفق واضح :

ـ أقضى عنك كتابتك وأتزوجك !

أى يدفع فديتها إلى قيس بن ثابت فتصير حرة ، ويتزوجها .

لفتة بارعة عبقرية تجمع بين نبل الفروسية والإلهام السديد : فهو لا يرفع عنها ذل الرق والأسر فحسب ، بل ويرد إليها عزتها أعز مما كانت قبل السبى ، يرفعها من الأسر إلى مقام زوجة القائد المظفر ، ويرفعها من الكفر إلى مقام أم المؤمنين . . ويجعل بينه وبين أهلها المهزومين نسبا وصهرا فيغسل الثأر ، ويحول الهزيمة والعداء إلى ألفة وولاء .

وكان طبيعيا أن تقبل الأسيرة ذلك الشرف الذى فتح لها الرسول أبوابه . ألم تقف ببابه سائلة مستجدية ، فأتاح لها أن تدخل من ذلك الباب سيدة عزيزة مستعلية ؟ .

فماذا كان من وقع الخبر على الناس ؟

نترك جانبا ما دب إلى نفس عائشة من غيرة معهودة فيها وفى سائر النساء . فهى قمينة ألا ترى فى ذلك الزواج إلا ضرة جديدة تتقاسم معها قلب الزوج وفراشه . وما كان الأمر كذلك من مبدئه . ولكن لاسبيل إلى إقناع امرأة غَيْرَى بأن هناك مقتضيات أخطر وبواعث أهم فى حياة الرجل من مسائل الزواج المألوفة بين الرجال والنساء . .

أما سائر الناس فما عرفوا أمر ذلك الإصهار إلى بنى المصطلق حتى أخذ كل واحد منهم يطلق سراح من عنده من أسراهم وسباياهم أحراراً لوجه الله ، وهم يهتفون : « أصهار رسول الله ! » .

وهكذا أعتق بزواجها أهل مئة بيت فيما يقال من بيوت قومها . واهتز أبوها ـ سيد قومه ـ لذلك النبل الذى أسر به محمد قلبه وقلب سائر بنى المصطلق ، فأسلم ، وأسلموا ، وفعل هذا الزواج ما لم يفعله السيف فى سلسلة من المعارك !

فأين هذه الكياسة الملهمة من الشهوة المزعومة ؟

لقد كان بيده أن يجعلها من نصيبه من السبايا . وكان بيده وقد راقته أن يجعلها فى ملك يمينه بشرائها من قيس بن ثابت . . ولكن المسألة كانت أكبر وأجل من فتاة راقت رجلا فتمناها . لأن المسألة كانت مسألة فتح مبين ، وتألف قلوب ، وانتشار دين . . ثم هى فضلا عن هذا مسألة نخوة ، لا نزوة .

الخاطر الكسير

ونتقل إلى عقيلة بنى النضير ، صفية بنت حيى بن أخطب عزيزة أخرى . عزيزة قوم ذلوا فذلت .

بنت ملك وزوجة ملك .

ينتهى نسبها العريق إلى هرون أخى موسى . وزوجها أحد ملوك خيبر : كنانة بن الربيع صاحب حصن القموص أمنع حصون اليهود ، وعنده كنزهم الأكبر .

وبشريعة الحرب التى لا ترحم ، والتى ويل فيها للمغلوب من الغالب ، سقط صناديد خيبر صرعى بعد أن سقطت قلاعهم ، وسقطت نساؤهم سبايا بين الغالبين .

ومن بين السبايا العقيلة التى أعزها نسب رفيع ومكان منيع ، زال ملكها ، وضاعت حريتها ، وفنى آلها أجمعون ، من الزوج إلى الشقيق إلى بنى العمومة الأقربين . . وانتهت فى ساعة من الزمن إلى ذل الأسر المهين .

فماذا فعل الفارس القائد الذى جرب النخوة من قبل فى عقيلة بنى المصطلق ؟

لم يترك عزيزة القوم تقع فى نصيب أحد أتباعه ليبيعها أو يضطرها إلى استجداء ما تستعين به على فك أسرها ورفع رقها . .

ليحسم الأمر من بدايته ، وليجعلها فى سهمه هو . . فلابد على كل حال من خمس الغنائم للقائد الرسول بعد كل معركة . فلتكن صفية إذن من ذلك الخمس المقسوم له . . !

وكان بيده أن يجعلها أمة من إمائه لو أنه كان ينظر إلى متعة . ولكنه حررها ، وتزوجها لتكون لها عزة بعد ذلة . وهو الذى طالما أكرم عزيز قوم ذل . . ولكى يعلم من لم يعلم بعدُ أن محمدا يجبر القلوب الكسيرة ، ويعفو عند المقدرة ، ويأسو ما جرحه مضطرا . .

ويذكر التاريخ لصفية جمالا معروفا فى بنات إسرائيل .

ولكن الجمال لم يكن هوالدافع إلى ذلك الزواج ، وما نظن إلا أن سواها من السبايا كن فى مثل جمالها أو يقاربنه . وهن بنات عمومتها وخئولتها اليهوديات . فما باله لم يدخل فى حريمه بملك اليمين زهرات مونقة من ذلك الحسن المباح بشريعة الحرب لكل محارب منتصر ؟

ظروف صفية التى سقط فى الميدان أبوها وزوجها وأخوها وكانت « السيدة الأولى » فى تلك الدولة المنهارة ، هى التى أثارت نخوة الفارس القائد الرسول ، ولم تكن الشهوة هى التى حركته إلى ذلك الزواج . .

« جبر خاطر كسير » . .

هذا هو الباعث الخفى على هذا الزواج ، وهذا شأن من تحركه النخوة لا النزوة . .

ولكنه ضلال القوم وإفكهم ومنطق الأكذوبة الذى لا يستحى .

لا يجـدع له أنـف

ونتنقل إلى عزيزة من طراز آخر ، لها اعتبار خاص غاية الخصوصية .

ما هى بابنة رجل من عامة الرجال . إنها ابنة قائد معسكر الكفر كله . ابنة أبى سفيان بن حرب بن أمية !

لم تقف أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ببابه أسيرة تستحث نجدته وأريحيته . ولم تعرض عليه بين السبايا وقد زال عنها الأب والزوج والأخ . ولكنها كانت - وأيم الحق - فى موقف أشد من هذا وأنكد !

قبل بعثة الرسول كانت رملة بنت أبى سفيان متزوجة من عبيد الله بن جحش الأسدى ، ابن عمة الرسول . وآمن عبيد الله بما أنزل على ابن خاله محمد بن عبد الله فأعلن إسلامه ، وأعلنت رملة إسلامها . ولم يمنعها من ذلك أن أباها زعيم قريش المشركة المنافحة عن الكفر المجاهدة للرسول وأصحابه .

وكان فى وسعها أن تلحق بأبيها موفورة الكرامة آمنة ناجية لولا أن الإيمان الجديد دخل قلبها . ووطنت النفس على تحمل قسطها من

الاضطهاد ، وهو قسط قد يزيد ـ بحكم القرابة الوشيجة ـ على قسط سائر المسلمات .

ولكن باب الهجرة إلى الحبشة أتاح لها فرارا من ذلك الأذى . ولنا أن نتصور مداه وهذه عقيلة بنى أمية تضطر إلى ركوب ظهر البعيرثم متن السفن وهى حبلى متوجعة من حملها الأول ، كى تفلت من يد أب متكبر حانق كان أحب إليه أن يوسدها الثرى من أن تطوف البلاد مهاجرةٍ لتعرضه لسخرية الساخرين من ضعف سلطانه على بنية من صلبه !

وما كادت رملة تصل إلى أرض النجاشى ، وتطمئن كما اطمأن سائر المهاجرين المسلمين إلى حمايته ورعايته ، حتى وضعت بنتها حبيبة التى عرفت فى التاريخ من بعد باسمها .

عقيلة قريش فى أرض غريبة ، تعيش لاجئة لا الآل آلها ، ولا الأرض أرضها ، ولا اللسان لسانها ، ولا الدين دينها ، ولا العادات عاداتها . ولولا هذا الزواج الذى من أجله تحدت سلطة الأب الجبار وتحملت مشقة الأسفار ووحشة البعد عن الديار لكانت حرية أن تهلك أسى وغما . .

ولكن زوجها عبيد الله كان أشد عليها من ذلك كله . حملها إلى هناك ثم تخلى عنها لأنه تخلى عن العقيدة التى بسببها حدث ذلك كله ، ومن أجلها انقطع ما بينها وبين أبيها وقومها العتاة الأمجاد . .

وليست المسألة : هل أحسن إلى نفسه بذلك أم أساء صنعاً . بل المسألة هى وقع تكذيبه لابن عمته على زوجه وقومه .

وكانت صدمة قاسية لرملة أم حبيبة ، وهذا وفد قريش جاء النجاشى يحرضه على المسلمين اللاجئين ويتسقط أخبارهم ليعود بها إلى قريش الحانقة المتربصة !

أى خزى وأى خذلان لعقلية قريش !

وأى خزى وأى خذلان لعقيدة محمد فى أرض الغربة أن الذى خذله وخذل زوجته المهاجرة هو ابن عمته !

ولم تجسر رملة على العودة إلى مكة . فقد ورثت عن أجدادها الكبرياء والأنفة من الشماتة . لن تعود لتجرر بين أهلها الشامتين ذيول الخيبة والمهانة . ستبقى حيث هى إلى أن يقضى الله أمرا . .

وجاءت الأخبار إلى محمد . .

جاءته وهو صاحب النخوة ، نخوة الفارس العربى ، وصاحب الدعوة ، دعوة الدين ، المنافح عن كيانه وعزته . .

وتمثل كرب أم حبيبة فى ديار الغربة . فأقدم على العمل الوحيد الذى ينتظر منه : مد يده عبر الفيافى والبحر إلى العقيلة المخذولة ليبدلها من زوجها المتخلى عنها خيراً منه : خير زوج تطمع فيه عقيلة تدين بالإسلام . ليبدلها من الشماتة زهوا ومن الخذلان تيها .

بعث إليها يخطبها لنفسه . ووكل النجاشى فى تزويجها منه !

وفى أرض المهجر التى شهدت خذلانها الموجع ، أصبحت أم حبيبة زوجة للرسول عن طريق ذلك التوكيل . وتطوع النجاشى

النصرانى فدفع إليها أربعمائة دينار مهرا هدية خالصة منه وغمرها بمظاهر التكريم هى وسائر المسلمين اللاجئين إليه !

ويقيت هناك حينا من الدهر ، إلى أن ثبتت أقدام الدولة الإسلامية فى المدينة ، وأرسل النبى يطلب بقية أتباعه المهاجرين من أرض النجاشى ، وعدتهم ستة عشر رجلا ومعهم النساء والأطفال على رأسهم ابن عم الرسول جعفر بن أبى طالب ، ورملة أم حبيبة بنت أبى سفيان التى أمست « أم المؤمنين » وهى فى بلاد الغربة قبل أن تقع عين زوجها عليها بأمد مديد . .

أى نصر لأم حبيبة !

وأى نصر للدين الجديد !

فما أشد وقع ذلك الزواج على معسكر الكفر كله . .

أكانت أم حبيبة معرضة للشماتة بتخلى زوجها عنها وعن الدين الجديد فى أرض الهجرة البعيدة ؟

أكان الدين الجديد عرضة للشماتة بهذا الارتداد ؟

لقد انقلب الموقف بهذا الزواج إلى النقيض : فهذه بنت زعيم قريش ، وقائد معسكر الكفر كله تغدو زوجة لمحمد !

وانقلبت السخرية بين أحياء العرب جميعاً لتركب ظهر أبى سفيان . وفى ذلك الموقف العصيب على أبى سفيان أطلق كلمته المشهورة :

ـ هذا الفحل لا يجدع أنفه . . !

وليس لهذا إلا معنى واحد : أن ما حاق بابنته من زوجها كان مفروضاً أن يجدع أنف محمد . .

ولكن الأنف الذى جدع بذلك الزواج لم يكن أنف محمد ، بل أنف أبى سفيان ومن والاه من المشركين . .

وكان محمد يعلم تمام العلم أن السخرية أمضى سلاح فى معارك السياسة والرأى والعقيدة . فقلب الأمر على أبى سفيان ، وجعله مطية للسخرية وقد احتفلت المدينة كلها بعرس أم حبيبة كى يتحدث العرب بذلك النصر السياسى المعنوى الذى يفوق النصر فى سلسلة معارك تسيل فيها الدماء . .

ولم تخل سريرة أبى سفيان مع هذا من حمد خفى لذلك « الفحل » ذى الأريحية والنخوة ، فالتى رفع قدرها وأعلى ذكرها هى ابنته على كل حال .

وبذلك بذرت بذرة تؤلف قلب أبى سفيان وعشيرته ، عسى أن تنبت هذه البذرة وتؤتى ثمارها بعد حين . .

زواج نخوة وزواج كياسة وزواج حماية لسمعة الدعوة . زواج تم « على بياض » ، فى أرض بعيدة ، ولا أحد يدرى هل يكتب للغائبة العودة مع سائر الغائبين ، أم يكون اللقاء فى رحاب الله يوم يبعثون . .

زواج يمكن أن يقال فى بواعثه أى شىء إلا أنه زواج شهوة ، أو قضاء نزوة . .

زواج أضفى على محمد كل إكبار وإجلال بعد أن كان معرضا للسخرية لما فعله ابن عمته من الارتداد . وكان أكبر الإجلال ما شعرت به هذه الزوجة العريقة الأبية .

ولن ينسى التاريخ لها أن جاءها أبوها مستجيرا بها كى تعصمه من غضب محمد عشية فتح مكة . دخل عليها متسللا متخفيا وهو واثق من حمايتها عند الشدة . أليست ابنته على كل حال وكل فتاة بأبيها معجبة ؟ وأى أب هو ؟! سيد قومه !

ووقفت أم حبيبة أمامه لا تدرى ماذا تقول لذلك الوالد الكافر زعيم معسكر الكفر ، ذلك المعسكر ، وهو يستجير بها من زوجها الرسول ، عدوه الأكبر !

أى موقف عصيب ! أى حرج لأى امرأة فى مكان أم حبيبة !

ولكن أم حبيبة لم تتردد إلا لحظة أقل من طرفة عين ! ثم وقفت حيث ينبغى أن تقف . وقفت فى جانب ذلك الزوج الكريم الذى صانها من الخذلان ، وحماها من الشماتة ، ووفر لها الإباء الذى لا تحرص عقيلة من طرازها على شىء حرصها عليه .

لم ير أبو سفيان من كرامته أن ينتظر إذن ابنته ، فتوجه إلى الفراش ليجلس عليه ويخاطبها خطاب السيد الأب وهى بين يديه . وإذا بتلك الابنة التى لم تره منذ سنين لا ترق له ولا تلين ، بل تطوى الفراش حتى لا يجلس عليه .

وتصنّع الشيخ الوقور الأناة وسألها :

ـ أرغبة بى عن الفراش طويته أم رغبة بالفراش عنى ؟

فلم تلبث أن أجابته ذلك الجواب اللاذع :

ـ هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك ، فلم أر أن تجلس عليه !

هذا الجواب ثمرة صنيع محمد الذى تزوج بنت أبى سفيان بدافع الصيانة والنخوة ، فزرع الإجلال فى قلبها إجلالا يفوق عاطفة النبوة ، ويفوق رقة اللقاء المفاجىء بعد الفراق الطويل . . حتى ردت ذلك الأب خائبا وهو يستجير من القتل !

عمل جليل رائع هو ذلك الزواج من أم حبيبة . ومساكين من تفوتهم روعته فينسبونه إلى عبث الشهوة .

أعمال الكبار كبيرة مثلهم . وأوهام الصغار صغيرة مثلهم . وكل ماعون بما فيه ينضح . .

هبة فى طيها حرج

ونتتهى إلى ميمونة بنت الحارث ، آخر نساء محمد ،

كان العام عام عمرة القضاء ، وقد دخل المسلمون مكة مسالمين بعد صلح الحديبية ليؤدوا فريضة الحج لأول مرة منذ الهجرة إلى المدينة ، وخلت مكة بمقتضى ذلك الصلح من أهلها المشركين . .

وكان ذلك الحج أكبر مظهر سلمى رائع استعرض فيه المسلمون قوتهم ، وكثرتهم ، وبدا فيه فجر النصر الكامل قريبا . .

واهتزت شعاب مكة وبيوتها بهتاف المسلمين وتلبيتهم كالرعد القاصف . .

وإذا عقيلة من عقيلات العرب المعدودات ، شقيقة زوجة العباس عم محمد ، وشقيقة زوجة حمزة ابن عم محمد ، ترى ذلك المنظر الباهر فتهزها الحماسة والأريحية وتصيح وهى تشهد ذلك اليوم على بعيرها :

ـ البعير وما عليه لله ورسوله !

وأفضت بذلك إلى العباس زوج أختها فرفع الأمر إلى ابن أخيه فلم يرد هبتها وتزوجها وهى يومئذ أرملة دون الثلاثين . .

وما كان له أن يردها فيكون ذلك خذلانا لمن جادت له بنفسها تحت وطأة الحماسة لدخوله معقل الشرك وطوافه ببيت إسماعيل !

وفى الـزواج بها تحت ضوء تلك الـظروف تسجيل لروعة تلك العمرة وتسجيل لما ألهبت به القلوب من حماسة وإجلال . .

وأراد أن يجعل ذلك التسجيل أبهى وأوقع ، فعرض على الكفار أن يتم العرس فى مكة ليولم لأهلها وليمة يشهدها الجميع من مسلمين ومشركين . وفى ذلك ما فيه من كبت قريش . ولكنهم أبوا عليه !

وفى الطريق إلى المدينة أقام محمد العرس ، ليكون بمشهد من أحياء العرب فى المعسكر المكشوف . .

تسجيل نصر ، وتسجيل حماسة وفخر . .

ذلك كان زواجه من ميمونة بنت الحارث التى صَبَتْ إلى الزواج منه رغبة فى شرف أمومة المؤمنين ، فلم يخيب لها رجاء ليس من البر والحكمة أن يخيبه لعقيلة كريمة ذات صهر قديم . .

* * *

هؤلاء زوجـاتـه اللواتى بنى بهن وجمـع بينهن . لم تكن واحدة منهـن هـدف اشتهـاء كما يزعمـون . ومـا من واحدة منهن إلا كان زواجـه بها أدخـل فى باب الـرحمة وإقالة العثار والمواساة الكريمة ،

أو لكسب مودة القبائل وتأليف قلوبها بالمصاهرة وهى بعد حديثة عهد بالدين الجديد .

هى ضريبة واجب إذن أو ضريبة مكانة وزعامة . وأخال لو كان له إخوة لزوجهم على ذلك المنوال ليحملوا عنه بعض تلك الأعباء . .

وما كان من الهين على رسول قائد جيش وحاكم دولة محاربة أن يزيد أعباءه بما يكون فى بيت كثير النساء من خلافات على صغائر الأمور . .

ولكنه الواجب . واجب الدعوة أو واجب النخوة . . وشتان ذلك وما يتشدقون به من أمارة النزوة . .

واجب باهظ التكاليف من أعصابه وذهنه ، واجب أقدم البعض على استغلاله استغلالا منكرا ، فرأينا من يعضلها أن تجد زوجا لا ترعى الحشمة وتذهب إلى الرسول تعرض عليه نفسها متطاولة إلى شرف أمومة المؤمنين ، وهى غير أهل لذلك الشرف بمحتد أو فضل أو سابقة جهاد . ويسكت محرجا لا يريد أن يجرح كرامة تلك المجترئة عسى أن تنصرف عنه ، وهو يعلم أن قبوله الزواج من مثلها سيفتح عليه بابا لا قبل له به . ولولا أن أحد أصحابه جعل نفسه فداء للرسول من ذلك الزواج بالهبة لأوذى فى حياته بإحدى خطتين : إما التورط فى القبول ، أو المجاهرة بالرفض الصريح . .

وأنقذه القرآن بعد ذلك من مثل التورط الفادح . فحرم عليه بصريح النص فى سورة الأحزاب أن يتزوج النساء من بعد أو أن يبدل بهن أزواجا أخريات . .

ولعل فى ذلك ما ينتهى به الجدل فى أمر سبع من أولئك الزوجات . .

وبقى أمر اثنتين أفردنا لكل منهما بابا على حدة ، لأن الأمر فيهما كان موضع لغط كثير ومماحكة لا تفتر حتى تثور ، وهما زينب بنت جحش ، وعائشة بنت أبى بكر . .

زواج المحـــارم

هذه زوجـة كثر فى زواج محمد بها اللغط ، وعلت للمغرضين ضجـة كبـيرة تولى كبرها مستشرقون كثر ، وتبعهم من السوقة أقوام وأقـوام . وكـان سندهـم فيها ـ كالعهد بمنطق الأكذوبة ! ـ أساسا تاريخيا ثابتا أقاموا عليه صرح المغالطة . .

« تزوج محمد ابنة عمته زينب بنت جحش » .

حقيقة تاريخية ثابتة ليست موضع جدل . .

« وكانت زينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة قبل ذلك ثم طلقهابعد خلاف بينهما وجفوة » .

وهذه حقيقة تاريخية ثابتة كذلك ليست موضع جدل . .

« وزيد بن حارثة كان ابنا بالتبنى لمحمد منذ الجاهلية وهو الذى زوجه ابنة عمته هذه » .

وهذه أيضاً حقيقة تاريخية ثابتة كذلك ليست موضع جدل . .

ولكن القصة التى ركبوها تركيبا من هذه العناصر الثلاثة قصة عجيبة حقاً فى ألوانها البراقة واستهوائها للعقول الساذجة والنيات الخبيثة .

والقصة التى يلوكونها أن زينب كانت وضيئة الحسن ـ وهى حقيقة لا تنكر ـ وأن الرسول آثر بها زيدا ، ثم حدث أن رآها ذات يوم وقد ذهب ينشد زيدا فى داره فقيل خرجت تستقبله وترحب به عندما سمعت صوته ينادى زيدا من خارج الدار ، وكان خروجها على غير أهبة كاملة فى الزى ، فوقعت من قلبه موقعاً حسنا . .

وفى رواية أخرى من روايات الطبرى أنه عند وقوف الرسول بباب زيد عبث الهواء بستر من الشعر مسدل على حجرة زينب « فانكشف عنها وهى فى حجرتها حاسرة ، فوقع إعجابها فى قلب الرسول ﷺ » . ونهضت زينب تدعوه للدخول كالعادة المتبعة فى المجاملة ، فأبى وولى وهو يهمهم بكلمات لم تميز منها زينب سوى قوله : « سبحان الله العظيم ! سبحان مصرف القلوب ! » فلما حضر زيد روت له زينب ما كان من حضوره ، وما سمعته من كلامه وهو منصرف . . فذهب زيد إلى الرسول وعرض عليه أن يفارقها ، فهتف به :

ـ أرابك منها شىء ؟

فقال له :

ـ لا والله يا رسول الله ! ما رابنى منها شىء ، ولا رأيت منها إلا خيرا ، ولكنها تتعظم علىّ لشرفها وتؤذينى :

فقال له الرسول :

- اتق الله وأمسك عليك زوجك .

فأمسكها زيد ، ولكن تعاظمها عليه اشتد حتى نفد صبره فطلقها . ففكر الرسول فى الزواج منها ولكنه خشى ألسنة الناس ، لأن الابن بالتبنى كان حكمه عند العرب فى الجاهلية حكم الابن الشرعى . فكيف يتزوج الرجل مطلقة ابنه ؟ .

وتقول القالة الغامزة المغرضة أن القرآن حل مشكلة هده الرغبة المتقدة بآيات أحلت له زواج زينب ، بل أمرته به أمرا ، وجعلت من ذلك قاعدة عامة حتى لا تكون مطلقات الأبناء بالتبنى أو أراملهم محرمات بعد ذلك على أحد من المسلمين .

وهم بذلك يشيرون إلى ما جاء فى سورة الأحزاب :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِم إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ .

وقد استغل المستشرقون ما رواه الطبرى وغيره مثل الزمخشرى الذى قال عند تفسيره هذه الآية :

« أبصر الرسول ﷺ زينب بعد ما زوجها زيدا فوقعت فى نفسه فقال : سبحان مقلب القلوب . وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادها لاختطبها » .

« فإن قلت : ما الذى أخفى فى نفسه والله مبديه ؟ قلت : تعلق قلبه بها ، وقيل : مودة مفارقة زيد إياها » . .

« فإن قلت : كيف عاتبه الله فى ستر ما استهجن التصريح به ، وماله لم يعاتبه فى نفس الأمر ، ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها ، ولم يعصم نبيه ﷺ عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة ؟ قلت : كم من شىء يتحفظ منه الإنسان ويستحى من اطلاع الناس عليه وهو فى نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله . . لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته غير موصوف بالقبح فى العقل ولا فى الشرع ، لأنه ليس بفعل الإنسان ، ولا وجود باختياره . . » .

ويستطرد الزمخشرى فيقول بعد قليل :

« ومن هنا كان عتاب الله لرسوله ، حين كتم الأمر وبالغ فى كتمه ، والله لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر ، والثبات فى مواطن الحق ، حتى يقتدى به المؤمنون فلا يستحوا من المكافحة بالحق وإن كان مراً » . .

* هذه هى الروايات التى أطنب المستشرقون فى تخريجها واتخاذها دعامة لتصريحهم وتجنيهم .

وأنا لا أجادل فى النصوص ، لأنها أمور فوق كل جدل . وأعنى هنا نصوص القرآن ، لا نصوص الطبرى والزمخشرى .

أجل هما إمامان جليلان . ومسلمان صادقان . ولكن القرب فى الزمان والمكان من شخصية فذة مع الحب والتقديس لها ليست ضمانا مطلقا للعصمة من الخطأ فى فهم الدوافع الحقيقية لتلك الشخصية . .

وأنا من الذين جربوا صدق المثل السائر : رب احمنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفء لهم !

إن النهج الصحيح فى فهم أعمال كبار الرجال أن نتصورهم فى ضخامتهم وفى عناصر تكوينهم النفسى . وعلى ضوء هذا التصور نتخير من الدوافع المختلفة الممكنة للعمل الواحد من أعمالهم ما يتفق وشخصيتهم .

وليس للقرب فى الزمن أدنى اعتبار فى هذا ، فربما كان البعيد أقدر على حسن الفهم وإصابة كبد الحقيقة من المعاصرين . ففى هذه المسائل النفسية يقيس المرء على نفسه غالبا . وليس من المقطوع به عندى أن يكون المعاصرون للرسول ، أو من هم أقرب إلى زمانه منا أشبه به فى تركيبه النفسى أو أقدر على تصور ذلك التركيب والاستنباط منه والقياس عليه . فالقرب زمانا أو مكانا ليس حجة على العقل .

وليس فى عزمى أن أفيض فى بيان المبدأ . لأنه لو لم يكن صحيحاً لكان أصح الناس نظرا وفهما هم الأقدم الأقدم . وليس ذلك كذلك !

وسأمضى فى عرض عناصر هذه القضية من بدايتها الطبيعية ، كى يتضح للعقل وضعها السليم .

والبدايَة الطبيعية أن نسأل أنفسنا :

ـ من زيد ؟ ومن زينب ؟

ونبدأ بزيد وقصة تبنى محمد له . . فنلتمس عند ابن هشام تلك القصة ، نقلا عن ابن إسحاق المطلبى :

« زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى بن امرىء القيس الكلبى ، مولى رسول الله ﷺ ، وكان أول ذكر أسلم وصلى بعد على بن أبى طالب . . وكان حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة . (وذلك أن أم زيد وهى سعدى بنت ثعلبة من بنى معن من طيىء كانت قد خرجت بزيد لتزيره أهلها فأصابته خيل من بنى القين بن جسر ، فباعوه بسوق حباشة وهى من أسواق العرب وزيد يومئذ ابن ثمانية أعوام) فدخلت على حكيم بن حزام بن خويلد عمته خديجة بنت خويلد وهى يومئذ زوج رسول الله ﷺ فقال لها :

ـ اختارى يا عمة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك !

« فاختارت زيدا ، فأخذته . فرآه رسول الله ﷺ عندها ، فاستوهبه منها ، فوهبته له ، فأعتقه رسول الله ﷺ وتبناه ، وذلك قبل أن يوحى إليه » .

وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعاً شديداً . وبكى عليه حين فقـده ، وظل ينشده إلى أن عثر عليه وهو عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لزيد :

- إن شئت فأقم عندى ، وإن شئت فانطلق مع أبيك .

« فقال : بل أقيم عندك . فلم يزل عند رسول الله حتى بعثه الله فصدقه . ويقال أن الرسول لما رآه اختاره على أبيه أخذ بيده وقام به إلى ملأ من قريش فقال :

- اشهدوا أن هذا ابنى وارثا وموروثا .

فطابت نفس أبيه عند ذلك . وكان يدعى زيد بن محمد . فلما أنزل الله عز وجل « ادعوهم لآبائهم . قال : أنا زيد بن حارثة » .

هذا هو زيد . وهذا مكانه من المجتمع القرشى : مكان الرق المعتق . وهذه مكانته من محمد : مكانة الولد بالتبنى برا به وحبا له ورفعا لخسيسته فى قريش بعد أن آثره الفتى على أهله الأمجاد ، قبل البعثة . ومحمد يومئذ فرد من آحاد القرشيين . وفى ذلك ما فيه من آية على دماثته التى فطر عليها منذ كان .

والآن من زينب بنت جحش ؟

هى بنت عمة محمد ، فى الذؤابة من قريش حسبا ، وفى الذؤابة من المسلمين قرابة من رسوله ، ولها فى الجمال شهرة يتحدث بها معاصروها .

ولما بلغ زيد مبلغ الرجال وآن له أن يتزوج شاء كرم محمد فى بره به أن يزيد من كرامته . وأن يرفع فوق ما رفع فى قريش من خسيسته .

فآثره ببنت عمته العقيلة الكريمة الحسب القريبة النسب الوضيئة الجمال .

والذى يدرك بعض الإدراك ما كانت عليه الفتاة العربية يومئذ من موروث الاعتزاز بالأحساب العريقة ، والنظر إلى الكفاءة فى الزواج ، يدرك ولا شك مدى العار الذى تستشعره مثل زينب من الزواج بعبد جرى عليه الرق ثم أعتق ، ولو كان يدعى فى الناس ابن محمد !

رواسب موروثة فى البيئة العربية لا حيلة فيها ، ولا سيما عند النساء . . وناهيك بالأمر إذا اتصل بما للواحدة من قيمة فى نظر نفسها أو نظر الناس . .

وتأذت زينب وتأبت . وتأذى أخوها وتأبى .

وتحرج الموقف . والرسول يريد أن يحطم الفوارق بين المسلمين ويقضى على خنزوانة الجاهلية وعصبيتها . . فيثوب الناس إلى أن أكرمهم عند الله أتقاهم حقا .

ولكن أكرم الناس عند الله ليسوا أكرمهم عند الناس فى جميع الأحوال . .

ولم يتم زواج زينب الحسناء الأبية العيوف من زيد إلا بحكم لا رد له . .

وللفرنجة مثل حصيف يضرب للأمر يتم عن غير طيب نفس :

ـ فى وسعك أن تأتى بالجواد إلى شاطىء النهر ، ولكن ليس فى وسعك أن تحمله على الشرب وهو لا يريد !

ووردت زينب مورد زيد ، ولكنها ظلت عصية النفس تجد لذلك الزواج غصة تعترض حلقها ، وكلما لقيت زيدا فى الدار تذكرت أن الذى هى فى عصمته إنما دخل دار ابن خالها رقيقاً وصيفا . فكيف وهى الحرة تسام ذلك الخسف ونظيراتها ومن دونها تزوجن من أكابر الأحرار ؟

وظلت تتعاظم عليه وتؤذيه بتعاظمها على حد قوله . فإذا بالزواج الذى كان سيرفع من خسيسته وقد زادها تأكيدا . وليس أقمأ لرجل من زوجة تستصغر شأنه وتزدرى قدره !

وضاق زيد بالأمر ، وفاتح محمدا فى طلاقها أكثر من مرة . وكان لابد أن يفاتحه فى ذلك . أليس هو الذى زوجه منها ؟ أليس هو منه بمقام الوالد وبه يدعى ؟ وأليست هى بنت عمته وقد أرادها على ذلك الزواج حتى أذعنت وفى القلب من ذلك شىء ؟

وتردد الرسول طويلا . كلما خاطبه فى طلاقها قال له :

- اتق الله وأمسك عليك زوجك !

فقد كان عزيزا عليه أن ينتهى هذا الزواج الذى سعى فيه وأمر به إلى تصدع وانهيار . .

وكان عزيزا عليه أن تتقوض القاعدة التى أراد بذلك الزواج تقريرها ، وهى محو الفوارق بين المسلمين وإلغاء الطبقات فى صميم الأسرة العربية وتقاليد المصاهرة فيها ، كما محا الفوارق فى الدين والعبادة والجهاد والإمارة . .

كان عزيزاً عليه أن تقف عقلية المرأة وتمسكها باعتبارات التناظر والتفاخر عقبة دون انتصار هذه الثورة الاجتماعية الإنسانية المنصفة للكرامة البشرية انتصاراً كاملا شاملا فى جميع الميادين . .

ولكن الفتى العزيز عليه وجد الأسى والنكد والإيذاء حيث أراد له أن يجد النعيم والمتعة والعزة .

ولكن اعتزاز المرأة كان أقوى من الإصلاح ومن مغزاه الكبير . فاستمرت تؤذى الفتى حتى نفد صبره وطلقها . .

* * *

طلق زيد زينب ولم تكن له بها حاجة . انقضى وطره منها ولم يعد له فيها مأرب .

فماذا ينتظر الآن زينب ؟

ماذا ينتظر العقيلة التى أذعنت طائعة للزواج ممن لا تود ، ولكن نفسها لم تنقد سلسة لذلك الزواج فشقيت به وأشقت ، وغدت مطلقة صغيرة السن ، وضيئة الحسن ، بغير زوج يضمها ويعصمها .

عادت زينب بنت عمة محمد إلى بيت آلها جريحة مطعونة فى شعورها الأنثوى وشعورها الاجتماعى .

لم تخل من أسى لتوهم هوانها على ابن خالها حتى زوجها من دعى لصيق وعبد عتيق ، فانكسر خاطرها وتأذت كرامتها !

ولم تخل من تشاؤم وهم . . فمن الذى يتزوج ثيبا . مطلقة مولى عتيق ؟ أكبر الظن أنه لن يقدم على ذلك كفء لها ذو منبت عريق .

ويزيد موقفها سوءا ، ويزيد وهمها وحشة ، أنها تزوجت مطلقها بأمر كريم . وعلم القاصى والدانى أنها لم تحسن معاشرة ذلك الزوج المظلوم . فمن يجرؤ على زواجها وهو يعلم أن الرسول أمر بالزواج وعارض فى الطلاق كلما استأذنه فيه زيد ؟

إنها لتحس بوادر النبذ تطبق عليها . وياله من موقف عصيب لحرة حسناء فى مقتبل العمر !

وما كان محمد بالذى يفوته ما ينطوى عليه الموقف من اعتبارات دقيقة ثقيلة الوطأة على الشابة المكروبة .

وما كان ليغفل عن صلته بما انتهت إليه حالها : أبت الفتاة وأصر هو أن يكون أمره نافذا . وهو الرسول وابن الخال !

وإنه ليعلم علم اليقين ـ وهو الإنسان ذو القلب الكبير ـ أن هوى القلوب لا حيلة للمرء فيه ولا يأتمر بإرادة أو يذعن لعقل .

فهو لا يستطيع أن يلوم زينب لأن قلبها عصاها وأبى أن يهفو للفتى الذى يحبه هو حب الأبناء .

وعلى هذا التأويل أعقل أنا قوله :

ـ سبحان مصرف القلوب !

أى سبحان الذى صرف قلب الشابة الحسناء عن الفتى الوسيم زيد ، فلم تستطع أن تسكن إليه بعد أن تزوجته طائعة مذعنة .

ذكر الرسول عندئذ ربه وحكمته . فكيف بعدئذ يلومها على ما لا تملك من هوى قلبها ، وسبحان مصرف القلوب !

لا لوم عليها !

فكيف إذن يتركها تحمل وحدها ما لا وزر لها فيه ، ولا طاقة لها بدفعه عن نفسها ؟

لابد أن يدفع عنها شعور الهوان والدونية الذى حاق بوهمها من ذلك الزواج غير المتكافىء ـ على ظنها .

لابد من زواج يكون بمثابة « رد اعتبار » لها .

ورأى من واجبه أن يتزوجها .

ثم رأى نفسه أمام اعتبار خاص من مخلفات البيئة العربية فى تاريخ جاهليتها الطويل . وما أعنت البيئة الصحراوية فى حفاظها على الموروث من الأنساب ، والموروث من التقاليد . . !

رأى نفسه أمام عقيدة مساواة الأدعياء « الأبناء بالتبنى » بالأبناء الحقيقيين فى كل شىء . فأرملة الابن بالتبنى أو مطلقته حرام على الأب بالتبنى حرمة مطلقة الابن الحقيقى أو أرملته . حرمة قديمة متأصلة موروثة . .

وزينب ذات شهرة مستفيضة بالجمال . .

فما عسى أن يقول الناس إذن ؟ وما عسى أن تتناجى به أحياء العرب وقد رأوا الرسول يتزوج مطلقة ابنه ؟ ألا يرمونه بقالة السوء ؟ ألا يخوضون فى نزاهة مقصده ؟

وتردد محرجا بين إرضاء ضميره وإطاعة نخوته بجبر خاطر زينب الكسير ورفعها إلى مقام أمهات المؤمنين . وبين النأى بنفسه عن تلك الشبهات . « ومن قعد الريبة ركبته » ، وهو الحصيف الذى خبر قلوب الناس وعرف خوافيهم . .

غامت نفسه وضاقت فجاجها حتى أتاه ما رفع الحرج عنه :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِ وَأَنْعَمتَ عَلَيهِ أَمْسِكْ عَلَيكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجناكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى المُؤمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْواجِ أَدْعِيائِهِم إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ .

وبذلك قضى على سلطان التبنى وما يترتب عليه من حرمة لا أساس لها . أم هل يكون الابن المتبنى الذى له أب معروف أقرب آصرة من الأخ الشقيق ؟ وهذه مطلقة الشقيق غير محرمة .

فكيف تحرم مطلقة اللصيق ؟

وما أخفى محمد فى نفسه إلا الرغبة فى جبر خاطر كسير لا سبيل إلى علاجه حق العلاج إلا بيده . . وما الأمر بالزواج هنا إلا منطوق حكم سبقته حيثياته الملزمة للعقل ، وألحقت به القاعدة العامة التى يلتزم بها سائر الناس من بعد . .

ولا تثريب فى العقل على من يتزوج مطلقة « قضى زوجها منها وطرا » أى لم يعد له فيها مأرب . وهى حرة تتزوج من تشاء .

ليست فى ذلك حرمة ولا شبه حرمة . وليست تلك بالتى تسقط مروءة أحد ، بل إن ظروف ذلك الزواج جميعاً تؤذن بأنه كان من أعمال النخوة المأثورة عن محمد ، ولم يكن تهورا ساقه إليه هوى صبيانى طائش . .

ولكن هل كان ذلك الموقف السامى فى فطنته ونبله بالذى يرتفع إلى مستواه كل عقل ؟

إن معظم العقول تغرم بزخرفة الخيال وأوهام الحس الشائعة بين سواد الناس . فكان ما كان ، من اختلاط الفهم أو تلفيق البهتان . .

انتهــاك الطفــولة

وعائشة بنت أبى بكر . .

لغط المحدثون من المفترين بأمر زواج الرسول منها ـ على ما ترويه كتب السيرة ، وعلى ما يروى من أحاديث السيدة عائشة نفسها ـ وهى دون العاشرة . . وتصايحوا منددين بانتهاك محمد لحرمة الطفولة ، ونسبوه إلى الوحشية الجنسية .

وليس أبعد عن خلائق محمد من مثل هذه الفرية .

روايات السيرة التى قدرت للسيدة عائشة عند زواج الرسول بها فى دار الهجرة تلك السن الصغيرة ، روت أيضاً فيها روت أمراً آخر هو موضع إجماع بين الرواة ، وهو أن السيدة عائشة كانت مخطوبة لجبير ابن المطعم بن عدى .

وخطبة الرسول للسيدة عائشة لم تكن عن مبادأة منه ، بل كانت باقتراح من خولة بنت حكيم ، رشحتها للزواج منه وقد رأت حزنه واستيحاشه لوفاة السيدة خديجة .

ومـا كانت أسنان الناس يومئذ لتعرف من « شهادات الميلاد » وأعمار النساء لم تزل ـ على عهد شهادات الميلاد ـ موضع تنقص واضح شائع بين جميع الطبقات . لا عن كذب متعمد ، بل عن سليقة فى المرأة متصلة بفطرتها الأنثوية .

وليس هذا خاصا بالمرأة فى مرحلة من عمرها معينة ، بل تشاهده فيمن لاشـك فى فراغهن من شأن الدنيا وانقطاع ما بين أجسادهن وبين الرجال انقطاعا تاما . .

ومما يروى فى هذا المعرض أن والدة الأستاذ العقاد وقد نيفت على الثمانين زارها ابنها فى مسقط رأسه بعد سنوات من الفراق . فتطلعت إلى رأسه مبهوتة وقالت كالذاهلة :

ـ شاب رأسك يا ولدى . . ؟

فنظر إليها باسما مترفقا ، وقال لها :

ـ ما يستحى من أوانه شىء يا أماه . . !

ـ ما هذا الذى تقول يا ولدى ؟ أين أنت من المشيب !؟

فذكر لها سنه . وكان قد تجاوز الستين . .

فأشارت بيدها مشيحة عما يقول وصاحت به :

ـ ما هذا الكلام ؟ كيف يكون هذا عمرك ، وأنا أمك لم أبلغ هذه السن بعد !

فضحك وقال لها :

ـ هذه والله سنى . . أترينني أجهل عمرى يا أماه ؟

فقالت بجد جاد :

ـ لقد أكل العلم عقلك ، لم تترك الأوراق والكتب لك عقلا !

رمته بالخرف من كثرة القراءة والتأليف ، وهى لا ترى أحداً أجل منه مكانة وأرجح فكراً . . لأن ذلك أقرب لديها من حقيقة حسابية تسجل عليها عمراً تأبى أن تعترف به !

هذا فى القرن العشرين . فما بالك ببداوة لم تعرف شهادات الميلاد لرجال أو نساء . ولا تذكر ولادة البنات فيها لأنها من أسرار البيوت المحجبة كما تذكر ولادة الفتيان . .

ولكن الذى لا شك فيه أن أعمار البنات كانت تعرف فى تلك البيئة ، مثلما تعرف فى بيئات الريف « الجوانى » والصعيد بعلاقات غير علامات التقويم . تعرف بأطوار النمو البدنى . كما يعرف الزارع نضوج الثمرة فى حقله . لا بيوم ثابت ، بل بسمة معهودة .

وآية هذا النضج هى التى قرأتها خولة بنت حكيم كما قرأتها البيئة كلها ، وبوحى من هذه الآية ذكرتها خولة للرسول فى معرض الزواج . .

هى إذن أنثى ناضجة يومئذ اسمها فى قائمة المرشحات للزواج ، أيما زواج ، فى مجتمع مكة .

وكان هذا المقترح فى السنة العاشرة للبعثة . أى فى السنة العاشرة لإسلام أبى بكر .

وكانت عائشة مخطوبة لفتى آخر ، هو جبير . خطبها له أبوه المطعم بن عدى . وكان آل المطعم بن عدى جميعاً فى السنة العاشرة للمبعث على كفر قريش المعهود فى الجاهلية . .

وهب المطعم بن عدى خطبها لابنه مذ ولدت . فهل كان ذلك معقولا أن يتم وأبوبكر الصديق هو من هو فى إسلامه ؟

ليس من المرجح أن يقبل الصديق بعد أن أسلم ذلك الخاطب المشرك . أوعلى الأقل ليس مرجحا أن يقبله إذا تقدم بعد أن أمر الرسول بالجهر بالدعوة .

فإذا أضفنا هذه القرينة إلى القرينة السابقة وهى نضوج عائشة للزواج أومقاربة نضوجها يوم ذكرتها خولة للرسول ، قدرنا سنها فى ذلك اليوم بما لا يقل عن تسع سنين .

ومرت بين الخطبة والزواج ثلاث سنوات على الأقل ، تصل بها إلى سن الثانية عشرة بحسابنا .

وحتى هذا القرن كانت حواضرنا تشهد زوجات فى هذه السن أوأقل منها . . ولا أعدو الحقيقة إذا ذكرت أن ممن أعرفهن أوثق معرفة من تزوجن فى آخر العقد الثانى من هذا القرن العشرين وهن دون العاشرة ! وأن والدتى كانت لا تتجاوز الثانية عشرة بكثير يوم تزوجت أبى . . وما كانت تلك السن لذلك العهد موضع غرابة أو استنكار .

وسواء صح أن عائشة كانت فى الثانية عشرة على الأقل ، أوكانت أصغر من ذلك بعام أوعامين . فالعبرة بالبيئة التى وقع فيها

الحدث . ومن الخلط فى التفكير أن يوزن الحدث منفصلا عن زمانه ومكانه وظروف بيئته جميعاً . فلا محل إذن للادعاء بأن الباعث على هذا الزواج هو الوحشية الجنسية التى تتلذذ لذة منحرفة بانتهاك الطفولة .

وأمـا ما يمصمص به المصمصمصـون شفاههم من الحديث عن الفارق الكبير فى السن . فحسبنا من رد عليه تكرير ما قلناه منذ قليل من الرجوع إلى البيئة التى وقع فيها الحدث . وما كان فارق السن فيها بدعة . وإنما هو العرف السائد . .

كان فى ذلـك كفـاية . ولكننا نزيد عليه ما يثبت نقيض تلك المفتريات والمغامز العرجاء . .

كانت عائشة أحب زوجات محمد إليه بعد خديجة .

هذه حقيقة لا مراء فيها . ولكن لماذا ؟

لأن هذه البنية التى ترعرعت بين سمعه وبصره بنت أحب الناس إليه . بنت أخيه الصديق . بنت أبى بكر

سأله عمرو بن العاص يوما :

ـ يا رسول الله من أحب الناس إليك ؟

أجـــاب :

ـ عائشـة !

قال عمـرو :

ـ إنما أقول من الرجال . .

أجـــاب :

ـ أبوهــا ! . .

أحبهـا أولا لأنها بنت أبى بكر . . ودللها تدليل الأب . كان يأتيهـا فى السنـوات الأولى من زواجها بأترابها ليلعبن معها بالدمى والعرائس ! وكان يحملها لترى من فوق كتفه ـ وخدها لصق خده ـ ملاعب الأحباش بالرماح والدرق . وكان يتغاضى عن هناتها فى ترفق وحنان . .

كان يشعر بالبنوة وهو مع خديجة . .

وكان يشعر بحنان الأبوة وهو مع عائشة .

كان حب حنان وترفق ، لا حب توحش وانتهاك كما أفكوا . .

كان لها الأب والزوج معا . .

وهو لم يتزوجها لأنه يحبها . . فما كانت إلا صبية يدللها تدليل العم لبنت أخيه قبـل أن يخطبهـا . بل تزوجهـا كرامة لأبى بكر ، وليشرع الصلات بين تلك الفئة القليلة من المؤمنين بالله وسط غيابة الكفر العمياء . .

ثم أحبها وهى بين سمعه وبصره ، تدرج فى بيته بشبابها الريق وبراءتها وذكائها المتوقد وخفة روحها . أحبها وقد أذكت فيه فطرة الأبوة الرحيمة . . وملأت حياته بالصبا الناضر والأبوة معا . .

أحبها الحب الذى طالما عبر لها عنه بقوله :

- حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى !

ومع هذا ، بقيت خديجة لديه سيدة النساء ، ليست كمثلها امرأة . . وإن تكن عائشة بنت أبى بكر !

تغار منها عائشة فيردها رداً عنيفاً . .

وما هكذا حب المغلوب على هواه . وما هكذا جماح الرغبة المستعمرة والشهوة المنحرفة . .

ثم تأتى محنة الإفك فى سنة ست للهجرة . ونحن ننقلها هنا عن سيرة ابن هشام ، مروية على لسان السيدة عائشة :

« كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع ، فخرج سهمى عليهن معه ، فخرج بى رسول الله ﷺ » .

« وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق (القليل من الطعام) لم يهجهن اللحم فيثقلن . وكنت إذا رحل لى بعيرى جلست فى هودجى. فيذفعونه فيضعونه على ظهر البعير ، فيشدونه بحباله ، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به » .

« فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك توجه قافلا . حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل . ثم أذن فى الناس بالرحيل ، فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتى ، وفى

عنقى عقد لى فيه جذع ظفار (خرز يمنى) فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل . فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه ، فالتمسته حتى وجدته . وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى بعيرى وقد فرغوا من رحلته فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع فاحتملوه ، فشدوه على البعير ، ولم يشكوا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به . فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس » ! . .

« فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى . فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على ، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب ، فلما رآنى قال :

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ! ظعينة رسول الله ﷺ ! ما خلفك يرحمك الله ؟

« فما كلمته ! ثم قرب البعير فقال وقد استأخر عنى » :

ـ اركبى !

فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس . فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى . فقال أهل الإفك ما قالوا فارتج (اضطرب) العسكر . ووالله ما أعلم بشىء من ذلك .

« ولم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولا يبلغنى من ذلك شىء ، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوى ، لا يذكرون لى منه قليلا ولا كثيراً . إلا أنى قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بى : كنت إذا اشتكيت رحمنى ولطف بى ، فلم يفعلِ ذلك بى فى شكواى تلك . فأنكرت ذلك منه . . حتى وجدت فى نفسى فقلت حين رأيت ما رأيت من جفائه لى :

ـ يا رسول الله . لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فمرضتنى ؟

قال :

ـ لا عليك !

فانتقلت إلى أمى ، ولا علم لى بشىء مما كان ، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة . وكنا قوما عربا لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأعاجم ، نعافها ونكرهها . إنما كنا نذهب فى فسح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن ، فخرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، وكانت أمها خالة أبى بكر ، فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها (كسائها) فقالت :

ـ تعس مسطح !

قلت :

ـ بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا !

قالت :

ـ أما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟

قلت :

ـ ومـا الخـبر ؟

فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك . . فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ، ورجعت ، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى ، وقلت لأمى :

ـ يغفر الله لك . . تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟!

قالت :

ـ أى بنية ! (هونى) عليك الشأن . فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها .

وقـد قام رسـول الله ﷺ فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

ـ « أيها الناس ! ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق . والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى ! . . » .

وتستطرد بعد قليل :

ثم دخل رسول الله ﷺ على وعندى أبواى ، وعندى امرأة من الأنصار وأنا أبكى وهى تبكى معى فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

- « يا عائشة : إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس . فاتقى الله وإن كنت قد قارفت سوءاً بما يقول الناس فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده . . » .

وبكت عائشة بكاء البريئة وأبت أن تتوب مما لم تفعل . وفوضت أمرها إلى الله ، حتى نزلت براءتها .

وليس المقام . هناً مقام فحص ذلك الأمر من حيث هو ، فلذلك موضعه من الكتب التالية فى الموسوعة التى خصصتها من تأليفى للمباحث الإسلامية . وإنما المقام هنا مقام النظر فى مسلك الرسول فى تلك المحنة .

هل هذا المسلك الرزين غاية الرزانة مسلك رجل يربطه بهذه الزوجة اشتهاء مستعر منحرف مما يلحدون إليه ؟

ليس هذا هياج ذى هوى متأجج ورغبة جارفة . بل هذا وقار أب يترفق بابنة صغيرة السن . فلا يفاتحها فى أمر يقض مضجعه ويجرح كرامته أيما جرح وهو من هو ، لأنه وجدها مريضة وكان أقصى ما فعله أنه لم يدللها كعادته حين تمرض . . وما كان بوسعه ولا وسع غيره أن يفعل ذلك فى هذه الأزمة العصيبة . .

هذا أسلوب الأب العطوف ولا مراء .

وشتان هذا العطف الأبوى الذى بلغ أقصى ما تطيقه الطبيعة البشرية من التماسك ومن الرفق ، والذى صوروه به من تعلقه بعائشة تعلق رجل شهوان يتلذذ بانتهاك الطفولة اللاهية . .

وليذكر الذاكــرون !

وليذكـر الذاكرون أن التاريخ كم وعى من رجالات أصحاب رسـالات كانت لهم الـزوجـات الكثـيرات ، بالعشرات وبالمئات . وكـانت لهم السرارى بغير عدد . ولم يقدح ذلك فيما لهم من فضل ظاهر ، ولا فيما لدعواتهم من أثر فى العقول والسرائر . .

وهل نسى الناس داود ، وسليمان ، وغير داود وسليمان ؟

فكيف لا يحسب هذا التعـدد اليسير إلا على محمد بن عبد الله دون سواه ؟

ألا إن الميزان المستقيم لا يكيل بكيلين ، ولا يحرم على زيد ما يرى أضعافه غير حرام على عمرو . . ؟

ومن يظلم إنما نفسه يظلم ، ومن يجور فى الحكم إنما يضير تفكيره وضميره . .

وسـلام على الصـادقين . .

الدكتور نظمى لوقا

من رقيق الأرض

المتمردين على الأغلال

مؤلفــات أخـــرى

للدكتـور نظمـى لوقـا

الله فى نظر الناس وكما أراه	١٩٣٦
المغتصبة (رقيق الأرض)	١٩٣٦
حياة الغول (حياة مخبولة)	١٩٣٦
الحـــرية	١٩٣٨
أشباح المقبرة (شعر)	١٩٣٨
كنت وحـدى (شعر)	١٩٣٩
الله أساس المعرفة والأخلاق	١٩٤٥
الفــن والتفــرد	١٩٤٦
آكــلة النيران	١٩٤٧
عذراء كفر الشيخ	١٩٤٩
دفاع عن العقل	١٩٤٨
الحقيقـــة	١٩٤٨
المخمـــور	١٩٥٢
المحترق بين الشك واليقين	١٩٥٧
محمد الرسالة والرسول	١٩٥٨
على مائدة المسيح	١٩٧٥
فرويد يفسر أحلامك	١٩٦١
أبو بكر حوارى محمد	١٩٦٨
عمرو بن العاص	١٩٦٩
الله والإنسان والقيمة	١٩٧٢
نحو مفهوم إنسانى للإنسان	١٩٧٥
الله : وجوده ووحدانيته	١٩٨١

(الكتب الثلاثة الأخيرة مذهب المؤلف الفلسفى المسمى الفلسفة التعبيرية) . .

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
تنبيه	٥
إهداء	٧
كلمة فى الشرف والشرفاء	٩
الأمية والجهل	١٧
جموح الشهوة وتعدد الزوجات	٣٥
المصانعة والوفاء	٤٧
النزوة والنخوة	٦٥
لابد من المواساة	٧٥
خير من ذلك	٨٣
الخاطر الكسير	٩١
لا يجدع له أنف	٩٧
هبة فى طيها حرج	١٠٧
زواج المحارم	١١٣
انتهاك الطفولة	١٢٩
وليذكر الذاكرون	١٤٢
كتب المؤلف	١٤٣

رقم الايداع بدار الكتب ٣١٤٩

الترقيم الدولى ٤ ـ ٣٥ ـ ٧٢٩٩ ـ ٩٧٧

هذا الكتاب :

الدكتور نظمى لوقا مفكر مسيحى متمسك بالمسيحية · وهو يطبق روح المسيحية السمحة وأدبها الرفيع فى المحبة والانصاف ومحاربة التجنى والافتراء ··

وهو يطبق أيضا رسالة العقل الحر والضمير الحى كما تتمثل فى العلم : فان معامل التحليل لا تفرق بين عينات الدم على حسب الأشخاص ، بل على حسب التكوين الفعلى لهذه العينات · وكذلك السير والرسالات يجب أن يفحصها العقل بنزاهة وحياد موضوعى ، بغير تعصب أو تحامل ، وبصرف النظر عن كونها تخص طائفة الباحث أو لا تخصها ··

وبهذه الروح السمحة النزيهة ، وبهذا الأسلوب العلمى الذى يخاطب العقل ويسمو به فوق كل اعتبار ، يكتب الدكتور نظمى لوقا المسيحى عن الاسلام ورسوله ورجالاته وهو يتمنى أن يقرأه الناس فى هذا الضوء العقلى الصافى ·

دار قبــاء للطباعة

بالمنطقة الصناعية C 1 أمام المجاورة السابعة

بمدينة العاشر من رمضان ـ ت ٣٦٢٧٢٧